جائزة غونكور للثانويين ٢٠١٦

مكتبة نوميديا

غابيل فاي

وطني الصغير

رواية

ترجمة: لينا بدر

الفارابي

وطني الصغير

وطني الصغير

غابيل فاي

ترجمة: لينا بدر

دار الفارابي

الكتاب: وطني الصغير

المؤلف: غاييل فاي

ترجمة: لينا بدر

الناشر: دار الفارابي . بيروت . لبنان

ت: 301461(01) – فاكس: 307775(01)

ص.ب: 3181/11 – الرمز البريدي: 1107 2130

www. dar-alfarabi. com

e-mail: info@dar-alfarabi. com

الطبعة الأولى: تشرين الأول 2017

© جميع الحقوق محفوظة لدار الفارابي

تباع النسخة إلكترونياً عبر موقع دار الفارابي

***

العنوان بلغة الأصل الفرنسية

PETIT PAYS

DE

Gaël FAYE

Traduit par

Lina BADR

Éditions GRASSET 2016 ©

ISBN : 978-2-246-85733-4

[متابعة ترجمة الكتاب وإنتاجه: محتَرَف القول الجريء بإدارة غازي برّو]

بيروت موبايل: 70216140

Atelier. oser. dire1@gmail.com

Réalisation et traduction de l’ouvrage: Atelier oser dire animé par Ghazi Berro

Cet ouvrage a bénéficié du soutien des» Programmes d’aide à la publication de l’Institut français»

Et «Cet ouvrage, publié dans le cadre du Programme d’Aide à la Publication Georges SCHEHADE, bénéficie du soutien du Ministère des Affaires Etrangères et du Développement International et du Service de Coopération et d’Action Culturelle de l’Ambassade de France.»

من أجل جاكلين..

توطئة

لا أعرف حقيقة كيف بدأت أحداث هذه القصّة، مع أن أبي شرح لنا ذلك ذات يوم ونحن في الشاحنة الصغيرة حين قال:

– ترون في بوروندي[1] كما في رواندا[2] ثلاث مجموعات مختلفة تسمّى إثنيات: «الهوتو» الأكثر تعداداً، وهم قصار القامة وأنوفهم كبيرة.

– مثل دوناتيان؟ سألتُ.

– لا إنه زائيري، الأمر ليس نفسه. مثل بروتيه طبّاخنا. هناك أيضاً ال. «توا» الأقزام. إنهم بضعة أفراد فحسب، لنكملْ، يمكن القول إنهم لا يشكلون فارقاً. ثم هناك «التوتسي» مثل أمكم. عددهم أقل من الهوتو ويتميزون بطول القامة والنحول، أنوفهم دقيقة ولا يمكن أن تعرف أبداً ماذا يدور في خلدهم. أنت غابرييل، قال وهو يشير إليّ بإصبعه، أنت توتسي حقيقي، لا نعرف أبداً بماذا تفكّر.

هذا صحيح، أنا نفسي لم أكن أعرف بماذا أفكّر. على كل حال، ماذا يمكن أن تفكّر بكل ذلك؟ سألت حينئذ:

– هل سبب الحرب بين التوتسي والهوتو لأن ليس لديهم الوطن نفسه؟

– لا، ليس هذا هو السبب، لديهم الوطن نفسه.

– فإذاً... ليس لديهم اللغة نفسها؟

– بلى، يتحدّثون اللغة نفسها.

– ليس لديهم الإله نفسه إذاً؟

– بلى، لديهم الإله نفسه.

– لماذا يتحاربون إذاً؟

– لأن ليس لديهم الأنف نفسه.

توقّف الحديث عند هذا الحد. كانت هذه الحكاية غريبة بعض الشيء، أظن أن أبي أيضاً لم يكن يفهم منها الشيء الكثير. منذ ذلك اليوم بدأت أنظر إلى أنوف وقامات الناس في الشارع. وعندما كنا نتسوّق وسط المدينة أنا وأختي الصغيرة آنّا، كنا نحاول خفية أن نحزر مَن كان «هوتو» ومن كان «توتسي». كنا نتهامس:

– ذاك الذي يلبس البنطال الأبيض، إنه هوتو، فهو قصير القامة وكبير الأنف.

– نعم، وذاك الذي يضع قبّعة، إنه فارع الطول نحيل، وأنفه صغير جداً، إنه توتسي.

– وهناك صاحب القميص المخطط، إنه هوتو.

– ولكن لا، انظر، إنه طويل ونحيل.

– نعم ولكن أنفه كبير!

بدأنا نرتاب منذ ذلك الحين بقصّة الإثنيات هذه، كما أن أبي لم يكن يريدنا أن نتحدّث بها. برأيه لا يجدر بالأطفال أن يتدخّلوا في السياسة ولكن لم يكن بيدنا حيلة،

إذ كان هذا الجو الغريب يتضخّم كالورم يوماً بعد يوم. حتى في المدرسة، كان الرفقاء قد بدأوا يتشاجرون كل الوقت وهم ينعتون بعضهم بعضاً بالهوتو والتوتسي. أثناء عرض فيلم «سيرانو دي برجراك[3]»، سمعنا أحد التلاميذ يقول: «انظروا! هذا رجل توتسي له الأنف نفسه». كان قد تغير جوهر الهواء. سيّان عندي الأنف الذي لديّ، المهم أن أشمّ به.

تستحوذ على تفكيري هذه العودة. لا يمرّ يوم من دون أن يناديني الوطن: صوت عابر، عبق رائحة، نور بعد الظهيرة، حركة، صمت أحياناً، يكون كافياً كي يوقظ ذكريات الطفولة. «لن تجد هناك شيئاً غير الأشباح وكوماً من الخراب»، لا تكفّ آنّا عن ترديد ذلك، آنّا التي لم تعد تريد قط أن تسمع من يتكلم عن هذا «البلد الملعون».. أُصغي إليها، أصدّقها. لطالما كانت ثاقبة الفكر أكثر مني. حينذاك كنت أُبعد هذه الفكرة عن رأسي. قرّرت مرّة أخيرة لا رجوع عنها ألَّا أعود إلى هناك بعد الآن. حياتي هنا في فرنسا.

لم أعد أُقيم في أي مكان. الإقامة معناها أن يذوب المرء بلحمه وشحمه في طبوغرافيا المكان وفي تجاويف محيطه. هنا لا شيء من كل ذلك. أنا عابر سبيل فحسب، أقيم، أبيتُ، أحتلّ مسكناً شاغراً. مدينتي مهجع أنتفع من المبيت فيه. تفوح من غرفتي رائحة دهان حديث ومشمّع أرضية جديد. جيراني غرباء بامتياز، نتجنّب بعضُنا بعضاً بكل تهذيب على سلّم العمارة.

أعيش وأعمل في ضاحية «سان كانتان أون إيفيلين» الباريسية، مدينة جديدة، مثل حياة لا ماضي لها. استغرقت سنوات كي أندمج، كما يقال، أي أن أحصل على عمل ثابت، وشقّة، وعلاقات صداقة. أحب التواصل مع الناس عبر الأنترنيت، علاقات تدوم أمسية أو بضعة أسابيع. الفتيات اللواتي يخرجن معي كلهن مُختلفات،

كل واحدة أجمل من الأخرى. أنتشي بالإصغاء إليهن يتحدّثن عن أنفسهن، وأشمّ رائحة شعرهن، قبل أن أسلّم نفسي كلّياً إلى رقة أحضانهن وسيقانهن وأجسادهن. لا تنسى أي واحدة منهن أن تسألني السؤال عينه الذي يحزّ في نفسي، ودائماً من الموعد الأول: «من أي أصل أنت؟» سؤال عادي، مناسب، معبَر شبه إجباري للذهاب في العلاقة أبعد من ذلك. تُنذر بشرتي التي بلون الكراميل عن أثر أبيض عندما تخفي سلالتها. «أنا كائن بشريّ». جوابي يضايقهن، مع ذلك، أنا لا أحاول استفزازهن ولا حتى أن أبدو متحذلقاً أو فيلسوفاً. منذ أن كنت صغيراً قصير القدّ، قرّرت ألا أعرّف عن نفسي البتة.

تستمر الأمسية لأن استراتيجيتي تسهّل الأمور. أتركهن يتحدّثن؛ فالفتيات يحببن أن أُصغي إليهن. أشرب، أغرق، أطفو فوق الكحول القوي وأتخلّص من صِدق نيّتي، أغدو صياداً يُخشى جانبه، أُضحكهن، أغويهن. كي أطمئن نفسي، أعود إلى سؤال «الأصول»، أصون السرّ عمداً، نلعب لعبة القط والفأر، أجيب بصفاقة وبرود: «هويّتي تزن بثقل الجثث». لا يعلّقن. يرغبن في اللهو فقط، ينظرن إليّ بعيون كعيون الظباء، أرغب بهن. أحياناً يستسلمن لي، يحسبنني غريب الأطوار، لا أسلّيهن سوى لبعض الوقت.

تستحوذ عليّ هذه العودة، وأنا أدفع بها إلى الأمام من دون تحديد دائماً، خوفاً من أن أجد حقائق مختبئة، كوابيس متروكة عند عتبة مسقط رأسي. في الليل أحلم وفي النهار أفكر، بعد عشرين سنة سأعود إلى حيّي، إلى هذا الشارع المسدود حيث عشت سعيداً مع عائلتي وأصدقائي. تركت لي أيام الطفولة علامات لا أعرف ماذا أفعل بها. في الأيام السعيدة أقول لنفسي إنني أستقي منها قوّتي ورقّة مشاعري. وحين أصل إلى قعر زجاجتي الفارغة، أرى فيها السبب في عدم تأقلمي مع العالم.

حياتي شبيهة بهذيان طويل. أهتم بكل شيء ولا شيء يستهويني. ينقصني ملح

الاستحواذ. أنا من نسل المتمرّغين، من الوسط الرخو. أقرص نفسي أحياناً. أراقب نفسي في المجتمع، في العمل، مع زملائي في المكتب. هل هذا الشخص في مرآة المصعد هو أنا فعلاً؟ هذا الصبي قرب آلة القهوة الذي يُجبر نفسه على الضحك؟ لا أتعرّف إلى نفسي. أتيت من بعيد جداً حتى إنني ما زلت مُتعجّباً من وجودي هنا. يتحدث أصدقائي عن حالة الطقس وعن برامج التلفزيون، لم أعد أُصغي إليهم، يصعب عليّ التنفّس، أفتح ياقة قميصي، الثياب تغطّي جسدي بالكامل، أُراقب حذائي المُشمّع، إنه يلمع ويعكس لي صورة مُخيّبة للآمال. ماذا جرى لقدميّ؟ إنهما مُختبئتان، لم أعد أراهما قط تتنزّهان في الهواء الطلق. أقترب من النافذة، السماء غائمة، ينهمر رذاذ رمادي ولزج، ما من شجرة مانغا واحدة في الحديقة الصغيرة المحصورة بين المركز التجاري وخطوط سكة الحديد.

في ذلك المساء عند خروجي من العمل، سارعت في اللجوء إلى أول بار مقابل محطة القطارات. جلست أمام طاولة لعبة الفيشة وطلبت كأساً من الويسكي كي أحتفل بعيد ميلادي الثالث والثلاثين. حاولت الاتصال بآنا على هاتفها الخليوي، لكنها لم تُجب. أصررت، أعدت الكرّة مرّات عديدة. في نهاية المطاف تذكّرت أنها في رحلة عمل إلى لندن. كنت أريد أن أحدثها عن مكالمة هذا الصباح، قد تكون إشارة من القدر. عليّ أن أعود إلى هناك. لن يكون ذلك إلا للوقوف على حقيقة الأمر، كي أتمكّن، وبشكل نهائي، من تصفية هذه القصة التي تُلاحقني وأغلق الباب ورائي إلى الأبد. طلبت كأساً أخرى. صوت التلفاز فوق البار كان يشوّش تفكيري. ثمة قناة إخبارية كانت تبثّ بشكل متواصل لقطات لبشر يهربون من الحرب. راقبت زورقهم المرتجل يصل إلى السواحل الأوروبية. الأولاد الذين يغادرونه يرتجفون بسبب البرد، جائعون، مُصابون بالتجفاف، يقامرون بحياتهم على أرض الجنون من العالم. أنظر إليهم وأنا أجلس مرتاحاً هنا، في المنصّة الرئاسية وفي يدي كأس من

الويسكي. سوف يظن الرأي العام العالمي أنهم فرّوا من الحرب ليعثروا على أرض الذهب، كلام تافه. لن يقولوا شيئاً عن الوطن الذي في داخلهم، فالشِعر ليس جزءاً من الأنباء، مع ذلك، إنه الشيء الوحيد الذي يحتفظ به الكائن البشري من عبوره على هذه الأرض. أشحت بنظري عن هذه المشاهد، فهي تقول الواقع وليس الحقيقة. ربما يكتبها هؤلاء الأطفال في يوم من الأيام. شعرت بالحزن وبفراغ شبيه بطريق مقفرة في الشتاء. الأمر ذاته دائماً في ذكرى ميلادي، تحلّ بي كآبة ثقيلة مثل مطر مداري عندما أعيد التفكير في والدي ووالدتي والرفقاء وذاك العيد الأبدي حول تمساح مشقوق البطن في آخر الحديقة...

1

لن أعرف أبداً الأسباب الحقيقية لانفصال والديّ، لكن لا شك في أن هناك سوء تفاهم عميقٍ منذ البداية، خطأ رافق لقاءهما، إشارة لم يرها أحد أو لم يرغب برؤيتها. في الزمن الماضي كانا يافعين وجميلين، قلبين مُفعمين بالأمل مثل شمس الحرية. كان يجدر أن تراهما! في يوم زفافهما، لم يتوقّف أبي عن وضع الخاتم في إصبعها. بالطبع كان لدى أبي شيء من السحر في عينيه الخضراوين الجميلتين وشعره الكستنائي الفاتح تُداخله خصل شقراء، وقامته الشبيهة برجال الڤايكنغ، لكنه لم يكن يضاهي جمال أمي! وإن أردت الحديث عن جمالها، لا بد من ذكر ساقيها الطويلتين الممشوقتين اللتين كانتا تثير خيال الرجال، ونظرات الحسد عند النساء. والدي فرنسي يافع من منطقة «جورا»، أوصلته رياح المصادفة إلى أفريقيا لإتمام خدمته المدنية، جاء من قرية صغيرة في الجبال لها طبيعة تشبه مناظر بوروندي بحيث اختلطت عليه الأمور، ولكن في بلاده، لم يكن هناك نساء يشبهن أمي كقصب بوص المياه العذبة بقامتها الممشوقة، وجمالها الأهيف مثل ناطحة سحاب، وبشرتها السوداء كخشب الأبنوس، وعينيها الشبيهتين بعينَيْ المها: كان يجدر أن تسمع! في يوم زفافهما، كانت الغيتارات المشدودة الأوتار تعزف موسيقى الرومبا الخفيفة، والسعادة تنساب من ألحان التشاتشا تحت سماء مرصّعة بالنجوم. كان كل شيء واضحاً! كان هناك شيء أكثر من الحب. كانت هناك الحياة، الضحك،

العيش. كانا يقفان في الحلبة، لم يتوقفا عن الرقص طوال الوقت، وحتى أكثر من ذلك بقليل.

كان والداي مراهقين بائسين فحسب، طُلب إليهما فجأة أن يصبحا بالغَين يتحملان المسؤولية. كانا قد تجاوزا منذ عهد قريب سنّ البلوغ، وخرجا من هورموناتهما، من لياليهما البيضاء، وصار لزاماً عليهما التخلّص من زجاجات البيرة الفارغة، وإفراغ بقايا سجائر الحشيش من منافض السجائر، وترتيب أسطوانات الروك السايكيديليك[4]، وطيّ السراويل الواسعة القدمين والقمصان الهندية. دقّ ناقوس الخطر: الأولاد، الضرائب، الالتزامات، وصلت الهموم باكراً جداً وبسرعة كبيرة، ووصل معها الخوف وقطّاع الطرق، الديكتاتوريون والانقلابات، برامج الإصلاح السياسي، التخلّي عن المثاليات، الصباحات التي تطلع بصعوبة، الشمس التي تتأخر كل يوم في الشروق أكثر. فرض الواقع نفسه قاسياً، وحشيّاً. تحوّلت لامبالاة البدايات إلى إيقاع جائر مثل دقّات رقّاص ساعة لا ترحم. ما كان طبيعياً ارتدّ عليهما مثل بومرانغ[5]، فتلقاه والداي ملء وجهيهما، وأدركا أنهما خلطا بين الرغبة والحب، وأن كلّاً منهما صنع صفات الآخر. لم يتشاركا أحلامهما، تشاركا أوهامهما فحسب. كان لكل منهما حلمه الخاص الأناني، وما كان مستعدّاً لانتظار تحقيق أحلام الآخر.

في الماضي، وقبل كل ذلك، قبل كل ما سأرويه وكل الباقي، كانت السعادة، كانت الحياة دون ضرورة لتفسيرها، الحياة كما هي، وكما كانت دائماً، وكما كنت أريدها أن تبقى. نوم هانئ، هادئ، دون بعوض يتراقص فوق أذنيّ، دون هذا الوابل من الأسئلة الذي صار يدقّ كالطبل على صفيح رأسي. في زمن الهناء، لو سألني أحدهم: «هل أنت بخير؟» كنت أُجيب دوماً: «بخير»، أردّ له بالمثل، إذ إن السعادة تُجنّبك التفكير. فيما بعد، بدأت أفكّر في السؤال. أفاضل بين ال«نعم» وال«لا». بدأت أتهرّب، أعبّر عن وجهة نظري بغموض، أومئ برأسي. فضلاً عن ذلك، كان كل من في البلاد يفعل مثلي. ما عاد الناس يجيبون سوى ب: «لابأس». لأن الحياة

لا يمكن أن تستمر على خير ما يرام بعد كل الذي حدث لنا.

2

تعود نهاية السعادة على ما أظن إلى ذاك اليوم من عيد القدّيس نيكولا على الشرفة الكبيرة في بيت جاك. كنا قد اعتدنا الذهاب إلى مدينة بوكاڤو في زائير لزيارة العجوز جاك مرة كل شهر. في ذلك اليوم، رافقتنا أمي مع أنها لم تكن تتحدّث كثيراً مع أبي منذ بضعة أسابيع. قبل الرحيل مررنا بالمصرف للحصول على بعض العملة الأجنبية. لدى خروجه قال والدي: «نحن مليونيريّة!». في زائير موبوتو كانت العملة قد هبطت إلى أدنى مستوياتها بحيث كنّا نشتري كأس ماء للشرب بأوراق نقديّة تعادل الخمسة ملايين.

من المركز الحدودي يبدأ عالم آخر. تبتعد الحشمة البوروندية ليحلّ محلّها الصخب الزائيري. داخل هذا الحشد الصاخب كان الناس يتحابّون، يتنادون، يتشاتمون، وكأنك في بازار لبيع الدواب. ترى هنا صِبية صاخبين قذرين يحدّقون إلى مرايا السيارة، إلى مسّاحات الزجاج، إلى إطارات العجلات الحديدية الوسخة من طرطشة غدائر المياه الراكدة، وتلمح هناك لحم جداء مشويّاً على أسياخ معروضة تعادل أسعارها بضع عربات مليئة بالأوراق النقدية، أمهات بعمر فتيّ يتعرجن بمشيتهن بين صفّ شاحنات البضائع والحافلات الصغيرة المتلاصقة كي يبعن البيض المسلوق بعد أن يغمسنه بالكثير من الملح، وأكياساً صغيرة من الفول

السوداني المفلفل. متسوّلون بأرجل ملتوية بسبب شلل الأطفال يطلبون بضعة ملايين مذكّرين إياك بنتائج سقوط جدار برلين الكارثية عليهم، كاهن يقف فوق غطاء محرّك سيارته المرسيدس مترجحاً يعلن بصوت يصمّ الآذان عن قرب وقوع نهاية الأزمنة، وبيده الكتاب المقدّس باللغة السواحلية المغلّف جلد الأفعى الأصَلة الملكية. داخل محرس صدئ، جندي نعس يحرّك برخاوة طاردة ذباب. كان انبعاث غازات السيارات الممتزجة مع الهواء الحار يجفّف حنجرة الموظّف الذي لم يحصل على مرتّبه منذ دهر. وعلى الطرقات تشكّلت فجوات كبيرة مكان حفر صغيرة لتسبب الأذى للعربات، لكن ذلك لم يمنع موظف الجمارك البتة من أن يفتّش كل واحدة منها بدقّة ويتحقّق من التحام العجلات، ومستوى المياه في المحرّك، وسلامة عمل غمّازات الإشارة. وإذا لم يظهر على الآلية الناقلة أي من الأعطال التي كان يتوقعها، كان يطلب شهادة المعمودية أو وثيقة أوّل المناولة للسماح بدخول السيارة إلى الأراضي الزائيرية.

بعد الحرب المضنية بعد ظهيرة ذلك اليوم، انتهى المطاف بوالدي إلى إعطاء موظف الجمارك الرشوة التي كانت تدور حولها كل تلك المناورات الوقحة. رفع الحاجز أخيراً وتابعنا طريقنا داخل أبخرة ينابيع المياه الحارّة التي تنطلق من جانبي الطريق.

ما بين مدينة أوڤيرا الصغيرة وبوكاڤو، توقّفنا في مطاعم رخيصة لشراء فطائر بالموز وقماع من النمل المقلي.

عُلّقت على واجهات المقاهي الشعبية كل أنواع اللافتات الطريفة: «ڤوكيه الشانزيليزيه»، «سناك بار جيسكار ديستان»، «مطعم العيد كما في بيتك». عندما أخرج أبي آلة التصوير البولارويد لتخليد هذه اللافتات والاحتفاء بالابتكار المحلّي، أطلقت أمي صوتاً من بين شفتيها يعبّر عن استيائها، وبّخته لأنه يتعجّب من هذه الابتكارات التي تليق بالبيض.

بعد أن أوشكنا على دهس عدد من الديوك والبط والأولاد، وصلنا أخيراً إلى بوكاڤو، قطعة من جنّات عدن على ضفاف بحيرة كيڤو، أطلال ديكورات فنّية حديثة لمدينة من الماضي. في بيت جاك، أُعدّت المائدة لاستقبالنا، حيث كان قد طلب القريدس الذي وصل حديثاً من مومباسا.

تهلّل أبي فرحاً:

– إنها لا تعادل طبق أصداف، ولكن كم يطيب لي أن أتناول الأطعمة الطيبة بين الحين والآخر.

– لمَ تشكو يا ميشيل؟ هل يُساء إطعامك في البيت؟ قالت أمي دون مراعاة.

– نعم! هذا الأحمق بروتيه يغصبني على التهام نشويّاته الإفريقية ظهيرة كل يوم. أقله لو أنه يطبخ لحم الضلع بشكل صحيح!

– لا تحدّثني عن ذلك يا ميشيل! تابع جاك. قردي الذي في المطبخ يشوي كل شيء بحجّة أن هذا يقتل كل الطفيليات. حتى إني لم أعد أعرف ما هي شريحة اللحم القليلة الطهو. حالما أعود إلى بروكسيل سآخذ جرعة من الأميبيا!

انطلقت الضحكات من الجميع. وحدنا آنّا وأنا بقينا صامتين عند طرف المائدة. كان عمري عشر سنوات وهي في السابعة. ربما لهذا السبب لم نفهم فكاهة جاك. في كل الأحوال، كان ممنوعاً علينا الكلام إلا إذا أردنا التحدث إلى والدينا. كانت هذه قاعدة ذهبية، عندما نكون مدعوين إلى مكان ما، لم يكن أبي يستسيغ تدخل الأولاد في أحاديث الكبار، خصوصاً عند جاك الذي كان بمثابة أب ثان له، قدوة، إلى درجة أنه كان يردّد دون انتباه تعابيره وإيماءاته نفسها، وحتى التغييرات في نبرة صوته. «هو الذي علّمني ما هي إفريقيا» كان يقول دائماً لأمي.

انحنى جاك تحت الطاولة كي يحتمي من الرياح ويشعل سيجارة بولاعته

الفضّية التي نُقش عليها أَيلان، ثم اعتدل في جلسته فانطلقت من منخريه تلافيف الدخان اللولبية، وراح يراقب، لبرهة، بحيرة كيڤو. كنا نرى من شرفته مجموعة من الجزر الصغيرة التائهة في البحيرة، وفي البعيد على الضفة الأخرى، كانت تقع مدينة سيانغوغو في رواندا حيث كانت نظرة أمي معلّقة على تلك الضفة هناك. لا شك في أن أفكاراً ثقيلة كانت تعبر خاطرها في كل مرة كنا نتناول فيها طعام الغذاء عند جاك. رواندا، هذا الوطن الذي غادرته في عام 1963 ليلة المذبحة، في ضوء اللهب الذي كان يحرق منزل عائلتها، هذا الوطن الذي لم تعد إليه قط منذ عامها الرابع، كان على مرمى حجر منها، بمتناول اليد تقريباً.

كان العشب في حديقة جاك قد جُزّ بطريقة فيها شيء من الاحتراف من قبل حدائقي عجوز كان يحرّك آلة قص العشب بحركات مترجّحة واسعة وكأنه يلعب الغولف. أمامنا طيور الطنّان بلونها الأخضر المعدني منهمكة في جني رحيق أزهار الهيبسكوس الحمراء، تقدّم رقصة باليه رائعة. زوج من الغرانيق بتاجين يجول في ظلّ أشجار الليمون والجوافة. كانت حديقة جاك تعجّ بالحياة، تسطع بالألوان، تعبق برائحة نبات عشب الليمون العطر. بهذا المزيج من أشجار الغابات النادرة المستحضرة من غابة نيونغو وبالأحجار السوداء المسامية التي أُحضرت من بركان نيراغونغو، كان بيت جاك أشبه بشاليه في سويسرا.

دقّ جاك الجرس الصغير على المائدة فجاء الطبّاخ على الفور. كانت ملابسه ومنظر القبّعة والمئزر الأبيض غير منسجمة مع قدميه الحافيتين المشقّقتين.

– احضر لنا ثلاث زجاجات بيرة وارفع هذه الفوضى عن المائدة قليلاً، أمره جاك.

– كيف حالك يا إيڤاريست؟ سألت أمي الطبّاخ.

– الشكر لله، لا بأس سيدتي!

– دع الله حيث هو من فضلك! ردّ عليه جاك، الحال جيدة لأنه لا يزال هناك بعض البيض في زائير لتشغيل الدكّان. لولاي لكنت تشحذ مثل الآخرين من بني جنسك!

– عندما أتحدّث عن الله، أتحدّث عنك يا معلّم! ردّ عليه الطبّاخ بمكر.

– لا تهزأ بي أيها الرجل القبيح!

ضحكا معاً وتابع جاك:

– أحياناً أفكّر كيف لم أستطع الاحتفاظ بامرأة صالحة لأكثر من ثلاثة أيام، بينما أمضيت خمساً وثلاثين سنة وأنا برفقة هذا الشمبانزي!

– كان عليك أن تتزوّجني يا معلّم!

– يا ابن الحرام! اذهب واحضر لنا البيرة عوضاً عن قول الحماقات!

أطلق جاك ضحكة صاخبة أعقبها بنحنحة أثارت قرفي ورغبتي في أن أتقيأ القريدس الذي أكلته.

انصرف الطباخ مجدداً وهو يدندن لحناً دينياً. مخّط جاك بقوّة في منديل قماشي مطرّز بأحرف اسمه الأولى، وأخذ سيجارة ثانية ونفض قليلاً من رمادها على الأرضية الخشبية اللامعة، ثم توجّه بالكلام إلى أبي.

– آخر مرّة كنت في بلجيكا، قال لي الأطباء يجب أن تتوقف عن التدخين وإلا سوف يُقضى عليك. عرفت كل شيء هنا: الحروب، السطو، الفاقة، بوب دينار، كولويزي[6]، ثلاثون عاماً من الحماقة لتحويل البلاد وجعلها زائيرية، وها هي السيجارة هي التي ستنال مني! يا اسم الربّ.

كانت علامات الشيخوخة بادية على يديه ورأسه الأصلع. هذه هي المرّة

الأولى التي أراه فيها يرتدي الشورت. وكان لون ساقيه الجرداوين والهزيلتين على غير انسجام مع سمرة ساعديه ووجهه التي لفحتها الشمس، وكأن مجمل جسده عبارة عن أجزاء غير متجانسة.

– ربما الأطباء على حق، عليك أن تُخفّف التدخين، قالت أمي بقلق. ثلاث علب في النهار، هذا كثير يا عزيزي جاك.

– لن تبدئي بذلك أنت أيضاً، قال جاك وهو يتوجّه إلى أبي وكأن أمي لم تكن هناك. كان أبي يدخّن مثل مدخنة وعاش حتى الخامسة والتسعين. ناهيك عن الحياة التي عاشها. شتّان ما بين كونغو في زمن ليوبولد الثاني واليوم! كان والدي قويّ البنية! هو الذي أنشأ خط السكة الحديد من كابالو إلى كاميلي، والذي لم يعد صالحاً منذ زمن طويل. فوق ذلك، مثل كل الآخرين في هذا البلد الفاشل. يا لها من فوضى، أقسم لك!

– لماذا لا تبيع كل شيء؟ تعال واسكن في بوجومبورا. الحياة ممتعة هناك، قال بابا بتلك الحماسة التي لديه عندما يقترح بعفوية فكرة للمرة الأولى. عندي أكثر من ورشة وأتلقّى العروض دائماً. هذه الأيام يوجد أموال!

– أبيع كل شيء؟ كفّ عن قول الترهات! تتصل بي أختي باستمرار كي أوافيها إلى بلجيكا. تقول لي: «عُدْ يا جاك، سوف ينتهي بك الأمر بشكل سيِّئ. مع الزائيريين ينتهي الأمر دائماً بنهب وإعدام البيض دون محاكمة». هل تتخيّلني أنا داخل شقة في «إيكزيل»؟ لم أعش هناك قط، ماذا تريد أن أفعل فيها في مثل سنّي؟ أول مرة وطئت قدماي أرض بلجيكا كنت في الخامسة والعشرين وفي بطني رصاصتان، عندما أُصبت في كمين أثناء طرد الشيوعيين من كاتانغا. أُجريت لي عملية جراحية، أسعفوني وعدت على الفور إلى هنا وبسرعة. أنا زائيري أكثر من الزنوج. وُلدت هنا وسوف أموت هنا! بوجومبورا تلائمني لأسابيع قليلة، أُوقّع عقدَي

عمل أو ثلاثة، أسلّم على بعض الاستعماريين البيض، أدور على المطاعم والأصدقاء القدامى وأعود إلى هنا. الزائيريون يسهل فهمهم أقلّهُ: رشوة وبخشيش وتسلك الأعمال! البورنديون؟ هؤلاء الناس! يحكّون أذنهم اليسرى بيدهم اليمنى...

– هذا ما أقوله دائماً، قالت أمي. أنا أيضاً ضقت ذرعاً بهذا البلد.

– أنتِ أيضاً إيڤون، ردّ عليها أبي منزعجاً. تحلمين بالعيش في باريس. هذه فكرتك الثانية.

– نعم سيكون ذلك جيّداً لك ولي وللأولاد. أي مستقبل لنا في بوجومبورا؟ هل يُمكن أن تقول لي؟ باستثناء هذه المدينة الصغيرة المقيتة؟

– لا تبدئي إيڤون! هذه بلادك التي تتحدّثين عنها.

– لا، لا، لا، لا... بلادي هي رواندا! هناك، في الأمام، أمامك رواندا. أنا لاجئة ميشيل. هذا ما كنت عليه دائماً في نظر البوروندييين. أفهموني ذلك بوضوح بشتائمهم وتلميحاتهم، بما يكنّونه للغرباء، بكلمتهم: «الأماكن محدودة» في المدرسة. دعني إذاً أفكّر ما أشاء عن بوروندي.

– اسمعي يا حبيبتي، قال أبي بنبرة! أراد بها أن تكون مُهدّئة. انظري حولك. هذه الجبال، هذه البحيرات، هذه القرية. نعيش في بيوت جميلة، لدينا خدم، مساحة للأولاد، مناخ رائع، ليست أعمالنا بهذا السوء. ماذا تريدين أكثر من ذلك؟ لن تحصلي أبداً على هذا الترف في أوروبا. صدّقيني! إنها بعيدة جداً عن الجنة التي تحلمين بها. لماذا تظنين أنني بنيت حياتي هنا منذ عشرين سنة؟ لماذا تعتقدين أن جاك يفضّل البقاء في هذه المنطقة على العودة إلى بلجيكا؟ نحن هنا محظوظون. هناك، لن نكون شيئاً. لماذا ترفضين فهم ذلك؟

– تثرثر وتثرثر، لكنني أعرف ما وراء هذا الديكور. عندما ترى أنت حلاوة

الهضاب، أرى أنا بؤس أولئك الساكنين فيها. عندما تُفتتن بجمال البحيرات، أشمّ منذ الآن رائحة غاز الميثان النائم تحت مياهها. هربت من هناء بلدك فرنسا لتعثر على المغامرة في إفريقيا. وهذا ما سرّك جداً! أنا أبحث عن الأمان الذي لم أحصل عليه قط، الراحة في أن أربّي أولادي في بلاد لا يُخشى فيها من الموت لأنك...

– توقّفي إيڤون، أوقفي مخاوفك وهذيانك بالاضطهاد. أنت تحوّلين كل شيء إلى مأساة. لديك جواز السفر الفرنسي الآن، ليس عليك أن تخشي شيئاً. تعيشين في ڤيلّا في بوجومبورا وليس في مخيّم للاجئين، لنتجنّب النقاشات الحامية إذاً من فضلك!

– لا أعبأ بتاتاً بجواز سفرك، لا يُغيّر شيئاً من القضيّة، لا يُغيّر شيئاً من هذا التهديد الذي يجول في كل مكان. القصّة التي أُحدّثك عنها لا تهمّك يا ميشيل، لم تهمّك يوماً قط. جئت إلى هنا لتبحث عن ملعب للعبتك كي تُطيل من أحلام طفولتك الغربية المدللة...

– ماذا تهذرين؟ أنت تزعجينني، بصراحة! الكثير من الأفارقة يحلمون في أن يكونوا مكانك.

حدّقت أمي إلى أبي بقسوة بحيث لم يجرؤ على إنهاء عبارته. ثم بهدوء شديد، استأنفت:

– حتى إنك لم تعد تعي ما تقول يا عزيزي ميشيل المسكين. نصيحة: لا تجرّب في العنصرية، أنت الهيبّي العتيق باباركول، هذا لا يلائمك إطلاقاً. دع ذلك لجاك وللاستعماريين الآخرين الحقيقيين.

اختنق جاك فجأة بدخان سيجارته. لم تعبأ أمي بذلك. وقفت، رمت منديلها بوجه والدي وذهبت. كان الطباخ قد وصل في اللحظة نفسها، على شفتيه ابتسامة

وقحة، وزجاجات البيرة على صينية من البلاستيك.

– إيڤون! عودي فوراً! اعتذري إلى جاك حالاً! صرخ والدي وقد رفع عجيزته قليلاً عن الكرسي وقبضتاه على الطاولة.

– دعها يا ميشيل، قال جاك. آه من النساء الصالحات...

3

في الأيام التالية حاول والدي مرّات عديدة استدراك غلطته بالكلمات الرقيقة أو بالدعابات، لكن أمي بقيت كالحجر. ذات يوم أحد، قرّر بشكل فجائي أخذنا إلى الغذاء في «ريشا» على ضفّة البحيرة، على بُعد ستين كيلومتراً من بوجومبورا. كان هذا آخر يوم أحد لنا نحن الأربعة كعائلة.

كانت نوافذ السيارة مُشرّعة على آخرها بحيث كان يصعب علينا سماع أصوات بعضنا بعضاً. كانت أمي شاردة في حين كان أبي يحاول أن يخرق الصمت بإعطائنا، من دون توقّف، شروحات لم يطلبها أحد منّا: «انظروا هناك، هذه أشجار الكوباكيه، أحضرها الألمان إلى بوروندي في نهاية القرن التاسع عشر. إنها تُعطي الكوباك، الألياف التي نستخدمها لسدّ الأذنين». كان الطريق يحاذي البحيرة ويمتد مستقيماً نحو الجنوب حتى الحدود التنزانية. تابع أبي إعطاء معلوماته التي لم تكن تعنينا بشيء قائلاً: «تانغانيكا هي أطول بحيرة، والأغنى بالثروة السمكية في العالم، يبلغ طولها أكثر من ستمائة كيلومتر ومساحتها تفوق مساحة بوروندي».

كان ذلك في نهاية موسم الأمطار والسماء صافية. كنا نلمح لمعان أسطح الصفيح فوق جبال زائير. وعلى بعد خمسين كيلومتراً في الجانب الآخر من الضفّة، كانت تتناثر أمام رؤوس الجبال نتف من غيوم بيضاء صغيرة كندف القطن.

كان جسر نهر موجير قد انهار بعد الفيضانات الأخيرة، لذلك عبرنا النهر من مجراه بالسيارة. انسابت المياه إلى داخل العربة، وللمرّة الأولى شغّل والدي الدفع الرباعي منذ أن امتلك سيارة الباجيرو. لدى وصولنا إلى «ريشا»، كانت هناك لافتة كُتب عليها «مطعم لوكاستيل». انعطفت السيارة باتجاه درب ترابي صغير تحفّه أشجار المانغا، واستقبلتنا زمرة من القرود الخضر كانت تفلّي رؤوس بعضها بعضاً في موقف السيارات. كان المطعم عبارة عن مبنى سطحه من الصفيح الأحمر تعلوه عند المدخل صفيحة من النحاس تمثّل الفرعون أخناتون.

جلسنا على الشرفة تحت مظلّة تروّج لبيرة «AMSTEL». كانت هناك طاولة واحدة فقط مشغولة، يجلس إليها وزير وعائلته على الغذاء، ويحرسهم جنديان مسلّحان. كان أولاد الوزير أكثر تعقّلاً منّا أيضاً، ما كان يرفّ لهم جفن، يأخذون بكل حياء زجاجات مشروب الفانتا التي أمامهم، وكان ينبعث من مكبّرات الصوت لحن مشوّش من شريط كاسيت لكانجو آميسي. راح والدي يتمايل على كرسيه البلاستيكي وهو يلاعب مفاتيحه بإصبعه، أما أمي فكانت تراقبنا، آنّا وأنا وعلى وجهها ابتسامة حزينة. عندما وصلت النادلة، أخذت الطلبات: لحم على السيخ عدد أربعة، اثنان عصير فاكهة، اثنان بيرة. لم تكن أمي تتبادل الكلام مع الموظّفين الصغار، كانت تحدّثهم باقتضاب. المستخدمون لا يستحقّون الكلام.

في العادة، كان علينا الانتظار ساعة قبل أن يقدّم الطعام. وبما أن الجو على المائدة كان مرهقاً ما بين رنين مفاتيح والدي وابتسامة والدتي الصفراء. استغللنا الظرف آنّا وأنا وانسحبنا نحو البحيرة. وكي يُفزعنا والدي صاح قائلاً: «احذروا التماسيح يا أولاد...». على بعد عشرة أمتار من الضفة كانت تظهر على سطح الماء صخرة مكوّرة مثل ظهر فرس النهر. مشينا في النهر حتى ذاك المكان قبل أن نبلغ المصبّ بلونه المعدني، حيث استطعنا أن نغطس ونراقب الأسماك تتنزّه بين الصخور الكبيرة في المياه اللازوردية. عندما صعدنا السلّم، لمحت أمي على الضفة

بردائها الأبيض وحزامها الجلدي العريض ومنديلها الأحمر على شعرها. كانت تُشير إلينا كي نأتي لنتناول الطعام.

بعد الغداء، اصطحبنا والدي إلى غابة كيغوينا لرؤية قرود البابوان المشاغبة. مشينا لفترة ساعة تقريباً فوق أرض غضارية دون أن نلمح شيئاً باستثناء بعض طيور التوراكو الخضراء. كان الجو بين أمي وأبي مملّاً، فهما لا يتكلمان ويتجنبان النظر أحدهما إلى الآخر. أصبح حذائي ثقيلاً من الوحل، بينما كانت آنّا تتقدّمنا راكضة كي تستبق اكتشاف القرود قبل الجميع.

فيما بعد أخذنا والدي لزيارة معمل زيت النخيل في رومونج الذي أشرف على بنائه عند وصوله إلى بوروندي في عام 1972. كانت الآلات قديمة وبدا المبنى مُغطّى بأكمله بطبقة دهنية، وكانت هناك أكوام صغيرة من جوز النخيل يتم تجفيفها فوق أغطية زرقاء واسعة. كانت تحيط بالمعمل وبشكل دائري، بساتين نخيل واسعة. وبينما كان أبي يشرح لنا مراحل العمل المختلفة، شاهدت أمي تبتعد وتذهب في السيارة. في وقت لاحق على الطريق، أقفلت نوافذ السيارة وعملت على تشغيل المكيّف، ثم أدخلتْ في المسجّلة شريط تسجيل ل. «خادجا نين» وبدأنا أنا وآنّا نغني «سامبوليرا». رافقتنا أمي. كان لها صوت عذب يداعب الروح ويثير القشعريرة مثل التكييف، وكنا نرغب بإيقاف الشريط كي لا نسمع غيرها.

عندما عبرنا سوق رومونج، غيّر أبي السرعة، وبالاندفاع نفسه وضع يده على ركبة أمي، فدفعتها بعنف كمن يتخلّص من ذبابة تمر فوق طبقه. نظر أبي على الفور عبر المرآة العاكسة، فتصنّعت عدم رؤية شيء ملتفتاً إلى النافذة. عند نقطة الكيلومتر 32، اشترت والدتي بضع كرات من معجنات المانهوك ملفوفة بأوراق الموز وضعناها في صندوق السيارة. وقبل نهاية الرحلة، توقّفنا لاستراحة عند حجر ليڤينغستون وستانلي. الذي قرأنا فوقه: «ليڤينغستون، ستانلي 25/11/1889م»[7].

تسلّيت أنا وآنّا بإعادة تمثيل لقاء المستكشفَين: «دكتور ليڤينغستون أظن؟» في البعيد، شاهدت أمي وأبي يتحدّثان. كنت آمل أن يتصالحا، أن يضمّ أبي أمي بذراعيه الضخمتين وتضع أمي رأسها في جوف كتفه، وأن يُمسكا بأيدي بعضهما بعضاً ويسيرا كعاشقين في الأسفل عند بستان الموز، لكنني فهمت أخيراً أنهما يتشاجران وبحركات كثيرة منهما وأصابع اتهام موجّهة إلى الوجوه. كانت تهبّ رياح رطبة تمنعني من سماع ما يتبادلانه من كلام. كانت أشجار الموز تتلوّى وراءهما ومجموعة من طيور البجع تحلّق فوق الرؤوس العالية والشمس الحمراء تنشر في الغرب وراء الهضاب العالية نوراً مُبهراً يغطّي سطح البحيرة المتلألئ.

في تلك الليلة هزّ غضب أمي جدران المنزل، سمعت صوت زجاج يتكسّر، نوافذ تُصفق، أطباقٌ تتحطّم على الأرض.

كان أبي يكرّر قائلاً:

– إيڤون، اهدئي. أنت توقظين الحيّ!

– اغرب عن وجهي!

كان النحيب قد حوّل صوت أمي إلى سيل من الوحل والحصى، نزف من الكلمات، هدير من الشتائم يملأ الليل. كانت الأصوات تنتقل مُتقطّعة، صراخ أمي تحت النافذة، واجهة السيارة التي حطّمتها. ثم لا شيء، ليعود العنف ويدور، يدور مجدّداً من حولنا. كنت أرى رواحهما ومجيئهما يتسرّب من تحت باب غرفتي. وسّعت بخنصري فتحة في واقية الناموس فوق رأسي. كانت الأصوات تختلط، تتباين ما بين الحاد والخفيض، ترتدّ على البلاط، ترنّ في السقف المستعار، لم أعد أعرف إذا كانت فرنسيّة أو بلغة الكيروندي، صرخات أو بكاء، إذا كان والداي هما من يتشاجران أم كلاب الحيّ التي كانت تنادي للموت. تعلّقت لآخر مرّة بسعادتي، ولكن

على الرغم من أنني تعلّقت بها كي لا تهرب، كانت مليئة بزيت النخيل، ذاك الذي كان يرشح من مصنع رومونج، كانت تفرّ من بين أصابعي. نعم، كان هذا آخر يوم أحد لنا نحن الأربعة. في تلك الليلة، غادرت أمي المنزل، خنق أبي عَبَراته، وبينما كانت آنّا غافية تضمّ قبضتيها، كان إصبعي الصغيرة تمزّق الستارة الرقيقة التي كانت تحميني دائماً من لسع البعوض.

4

كان ينبغي تسوية الأوضاع إذ إن عيد الميلاد سيحلّ قريباً. بعد معركة بين أبي وأمي لمعرفة من منهما سيأخذنا في موسم الأعياد، كان من المناسب أن أبقى مع أبي وتذهب آنّا مع أمها لزيارة أوزيبي وهي خالة لأمي تعيش في كيغالي في رواندا. كانت هذه هي المرة الأولى التي تعود فيها أمي إلى رواندا منذ العام 1963. كان الوضع يبدو مستقرّاً بفضل اتفاقات السلام الجديدة بين الحكومة وجبهة رواندا الوطنية، هذا العصيان الذي نظّمه أولاد منفيون في سنّ والدتي.

أمضينا عيد الميلاد أنا وأبي بمفردنا. تلقّيت هديّة دراجة هوائية حمراء نوع BMX مزيّنة بشرائط متعدّدة الألوان تتدلّى من المقبضين. كنت فرحاً جداً إلى درجة أنني عند أنوار الصباح الأولى للعيد، حتى قبل أن يستيقظ والدي، أخذتها إلى بيت التوأمين اللذين كانا يعيشان في المنزل المقابل لمنزلنا عند مدخل الدرب المسدود. أُعجبا بها كثيراً. فيما بعد، تسلّينا بزحلقة الدراجة فوق الحصى. وصل أبي بمنامته المخطّطة ساخطاً وصفعني أمام رفقائي لأنني غادرت المنزل باكراً جداً دون أن أُخبره. لم أبكِ، ذرفت بعض الدموع فقط بالتأكيد بسبب الغبار الذي تصاعد من جراء انزلاق العجلات أو من حشرة صغيرة عالقة في زاوية عيني، لم أعد أذكر تماماً.

يوم رأس السنة قرر أبي أن يصحبني في جولة إلى غابة كيبيرا. أمضينا الليلة

عند أقزام قرية الفخّارين على ارتفاع أكثر من 2300 م. كانت الحرارة هناك تُقارب الصفر. عند منتصف الليل، سمح لي أبي بشرب بضع جرعات من بيرة الموز لأتدفأ وأحتفل ببداية سنة 1993 الجديدة. ثم نمنا على الأرض الصلبة، بعضنا لصق بعض حول النار.

في الصباح الباكر، غادرنا أنا وأبي الكوخ على أطراف أصابعنا بينما كان الأقزام يتابعون شخيرهم، ويسندون رؤوسهم إلى طاسات القرع التي شربوا فيها بيرة الموز ليلة البارحة. كانت الأرض في الخارج مغطّاة بالجليد، وتحوّل الندى إلى كريستال أبيض، وكان ضباب كثيف يغلّف قمم أشجار الأوكاليبتوس. اتجهنا نحو قلب الغابة عبر درب مُتعرّج. التقطتُ عن جذع عفن حشرة ضخمة من مُغمّدات الأجنحة سوداء وبيضاء، وحبستها داخل علبة معدنية كي أبدأ بها مجموعتي كعالم حشرات. ومع ارتفاع الشمس رويداً رويداً في السماء، كانت الحرارة تزداد وتحوّل طراوة الفجر إلى رطوبة دبقة. كان أبي يمشي أمامي صامتاً والعرق يجعل شعره أدكن ومُجعّداً قليلاً فوق عنقه. وكنا نسمع أصوات قرود البابوان تتردّد في الغابة، وكنت أقفز جفلاً أحياناً حين يتحرّك شيء ما داخل أغصان السرخس، لا شك أنه قطّ برّي أو سنّور زبّاد بالتأكيد.

في آخر النهار صادفنا زمرة من الأقزام مع قطيع كلابهم، كلاب من نوع نيام نيام. كانوا آتين من قرية الحدّادين، منطقة في أعلى الجبال، وهم في طريق عودتهم من الصيد مع أقواسهم المائلة فوق صدورهم ومعهم غنائمهم من حيوانات الخلد وجرذان الجامبي والشمبانزي. كان أبي مولعاً بهؤلاء الرجال الصغار الذين لم يتغيّر نمط حياتهم منذ آلاف السنين. عندما تركناهم، حدّثني أبي بحزن عن الاختفاء المنهجي لهذا العالم بسبب الحداثة والتقدّم والتبشير بالمسيحية.

قبل أن نصل إلى السيارة، عند آخر جذع شجرة صغير على الدرب، طلب

مني أبي أن أقف هناك، أخرج آلة تصوير من النوع الذي يستعمل مرة واحدة وقال لي:

– قف هناك! سوف ألتقط لك صورة، هكذا سيكون لدينا ذكرى. تسلّقت شجرة لها شكل منجنيق كبير، وقفت بين غصنين. أدار أبي مفتاح آلة التصوير. انتبه! سمعت صوت تكتكة ثم صوت الفيلم يعود يلتفّ على بكرته. كانت هذه نهاية الفيلم.

شكرنا الأقزام في القرية على استقبالهم وحسن ضيافتهم. ركض الصبيان وراء السيارة لعدة كيلومترات محاولين التعلّق بها إلى أن بلغنا الطريق المُعبّد. في طريق بوغاراما المنحدر تجاوزنا «انتحاريو الموز»، أولئك الرجال فوق دراجاتهم الهوائية يقودونها بسرعات خارقة كالسيارات، يحملون في أقفاصها أقراط الموز الهائلة الحجم أو أكياساً مليئة بعشرات الكيلوغرامات من الفحم. كان السقوط بهذه السرعة مميتاً في أغلب الأحيان، وأقل خروج عن الطريق العام كان يؤدي إلى قعر الهاوية حيث مقبرة الشاحنات التنزانية والحافلات الصغيرة المدهوسة. على الجانب الآخر من الطريق، الدرّاجون أنفسهم، وبعد تسليم بضائعهم في العاصمة، كانوا يعاودون صعود الجبل بالتعلّق خفية بواقية الصدمات وراء الشاحنات الكبيرة. رحت أتخيّل نفسي فوق دراجتي ال. BMX الحمراء ذات الشرائط أنزل بأقصى سرعة في منعطفات بوغاراما، أتجاوز السيارات والشاحنات في سباق مخيف والتوأمان وأرمان وجينو يهلّلون لي عند وصولي إلى بوجومبورا مثل فائز في سباق فرنسا الوطني.

عندما وصلنا إلى البيت كان الليل قد حلّ. أطلق أبي بوق السيارة عدة مرّات أمام الباب الذي عُلّقت عليه لافتة كُتب عليها «كلب شرير». جاء البستاني يفتح لنا الباب وهو يعرج، يتبعه كلبنا الصغير الأبيض والأصهب بوبره الجعد، وهو هجين غريب بين كلب شعراني مالطي وصائد جرذان، كان هذا هو المقصود على اللافتة صدقوا أو لا تصدقوا. عندما نزل أبي من السيارة سأل البستاني فوراً:

– أين كاليكست؟ لماذا أنت من فتح البوابة.

– اختفى كاليكست يا معلّم.

كان الكلب يتبعه باستمرار وهو من دون ذيل، لهذا كان يهزّ جزأه الخلفي ليعبّر عن سروره، كما كان يرفع شفتيه ما كان يُعطي انطباعاً بأنه يبتسم.

– كيف اختفى هكذا؟

– رحل باكراً جداً هذا الصباح ولن يعود.

– ما هذه القصة أيضاً؟

– حدثت مشاكل مع كاليكست يا معلّم. البارحة احتفلنا برأس السنة، وبعد أن غفوت دخل المخزن وسرق أشياء كثيرة. بعد ذلك اختفى... هذا ما تحققت منه.

– سرق؟ ماذا سرق؟

– عربة جرّ، علبة معدّات، مِجلخاً، آلة لحام، علبتي طلاء...

كان البستاني يتابع جرد المسروقات عندما قاطعه أبي بحركة من يده.

– حسناً! حسناً! نهار الاثنين أتقدّم بشكوى.

أضاف البستاني.

– سرق أيضاً دراجة السيد غابرييل الهوائية.

لدى سماعي هذه العبارة شعرت بقلبي ينخلع ويسقط داخل بطني. مستحيل، لم أكن أستطيع أن أتخيّل كاليكست قادراً على فعل شيء كهذا. بدأت أبكي بكاءً حارّاً. حقدت على الأرض كلها، في حين كان أبي يردّد قائلاً: «لا تخف كابي سوف نعثر على دراجتك».

5

في يوم الأحد التالي عشية العودة إلى المدرسة، عادت آنّا من رواندا. أوصلتها أمي إلى البيت في بداية فترة بعد الظهر. كانت تزيّن رأسها جديلات رفيعة جداً مع خصل شقراء صارخة وهذا ما لم يعجب أبي إذ كان يرى اللون سوقياً بالنسبة إلى فتاة صغيرة. تشاجر مع أمي التي انطلقت على الفور فوق دراجتها النارية ورحلت قبل أن يتسنّى لي الوقت لتقبيلها وأتمنى لها عاماً سعيداً. بقيت للحظات طويلة مُسمّراً على درجات السلّم وأنا على اقتناع بأنها سوف تعود بعد أن تدرك أنها نسيتني.

ثم مرّ التوأمان إلى بيتنا ليحكيا لنا عن عطلتهما في عيد الميلاد عند جدّيهما في الريف.

– كان الأمر فظيعاً! لم يكن هناك حمّام، اضطررنا للاستحمام عراة تماماً في الفناء أمام كل الناس أقسم بالله يا كابي!

– ولمّا كانوا غير مُعتادين رؤية خلاسيين مثلنا، كان أولاد القرية يأتون ليتلصّصوا علينا عبر السياج. كانوا يصيحون: «مؤخرات بيض صغيرة». كان هذا مُزعجاً. كانت جدّتي تطردهم برمي الحصى عليهم.

– وحينئذ لاحظتْ أننا لسنا مختونَين.

– هل تعرف ما معنى «مختون»؟

– أشرت برأسي «لا».

– أي أن يقصّوا لك الزيزي[8]!

– طلبت جدتي من خالي سوستين أن يختتنا.

– نحن أيضاً لم نكن نعرف حتى تلك اللحظة ما المقصود بالختان. لهذا في البداية لم نعر اهتماماً للأمر. كانت جدتي تتحدّث مع خالي بلغة الكيروندي ولم نكن نفهم شيئاً، لكنها لم تكن تكفّ عن الإشارة بإصبعها إلى فتحة سراويلنا. كنا نريد استدعاء ذوينا لأننا شعرنا أن جدتي وخالي يعدّان لشيء مشتبه فيه فعلاً. ولكن أقول لك، هناك! إنه الريف الحقيقي، لا يوجد هاتف، لا يوجد كهرباء. المراحيض يا عزيزي عبارة عن حفرة في الأرض مع ذباب يحوّم طويلاً حولها! أقسم بالله!

في كل مرة كان التوأمان يحلفان، يقولان «أقسم بالله»، يضعان في الوقت نفسه إصبعاً على عنقهما مثل سكّين يذبح دجاجة، ويُنهيان الحركة بفرقعة أصابع في الهواء، الإبهام على السبابة: كلاك!

– وصل خالي سوستين مع أبناء الأخوال الكبار، غودفروي وبالتازار. أخذونا عند مخرج القرية، إلى بيت صغير من الطين، حيث توجد في وسط الغرفة منضدة خشبية.

– كان خالي قد اشترى شفرة حلاقة من الدكان.

– أمسك غودفروي بذراعيّ وراء ظهري وقام بالتازار بتثبيت ساقيّ، بينما قام خالي بتنزيل سروالي الداخلي. أمسك بالزيزي، وضعها على الطاولة. أخرج شفرة الجيليت من الورقة، شدّ الجلد وزيييب! قطع الطرف! ثم وضع ماءً مالحاً فوقها كي لا تلتهب. أقسم بالله!

– يا ويلي! عندما شاهدت ذلك، جريت مباشرة نحو الهضاب مثل ظبية إمبالة تلاحقها الفهود، لكن أولاد الخالات أمسكوا بي، ثبّتوني وزيييب! الشيء نفسه!

– ثم وضع الخال سوستين طرفي الزيزي خاصتنا داخل علبة كبريت وأعطاها إلى جدّتي. فتحت العلبة لتتحقّق من العمل. بدا على وجهها رضى الرولينغ ستونز، أقسم بالله. كان هذا مثل السحر المؤذي! وكي تُتوّج كل ذلك، دفنت أطراف الزيزي في قطعة أرض صغيرة تحت أشجار الموز!

– صعدت إلى جنّة غُلفات الزيزي! ليتقبّل الله روحها!

– آمين!

– بعد ذلك، لم ننته عند هذا الحد! كان علينا أن نرتدي فساتين مثل البنات، لأن السراويل تحفّ كثيراً على الجرح، هل تفهم؟

– الفستان، إنه العار الأكبر يا عزيزي!

– عندما عاد والدانا لأخذنا في نهاية العطلة وشاهدانا في هذه الملابس المضحكة، فوجئا. سألنا أبي ماذا نفعل هكذا بالتنّورة.

– حكينا له كل شيء ففقد السيطرة على أعصابه أمام العجوز وقال إننا فرنسيون ولسنا يهوداً!

– لكن أمي شرحت له أنهم يقومون بهذه العملية من أجل النظافة، كي لا يبقى هناك أوساخ عالقة في الداخل.

كان التوأمان لا يزالان مبهورين عندما أنهيا واحدة من قصصهما. كانا يتحرّكان في كل الاتجاهات كي يشرحا ويقلّدا أدق التفاصيل، حتى الأبكم كان ليفهم قصّتهما. عندما كانا يتكلّمان، كان يبدو وكأن العبارات تتزاحم داخل رأسيهما

والكلمات تتصادم. وبمجرد أن ينتهي الأول من عبارة يبدأ الآخر وراءه مباشرة، مثل عملية استلام العصى في سباق التتابع.

– لا أصدّقكما! قلت.

ذلك لأن التوأمين مُغرمان بالكذب أيضاً. وإذا بدأ أحدهما برواية كذبة، يستأنف الآخر دون حتى أن يكونا قد اتفقا عليها مسبقاً. كانت هذه موهبة حقيقية بالفعل. كان أبي يقول عنهما: هما فنّانا التلفيقات ومُشعوذا وبهلوانا الحقيقة. عندما قلت لهما إنهما يسخران مني، ردّا معاً: «أقسم بالله»، إصبع على العنق، فرقعة في الهواء، الإبهام على السبابة: كلاك! ثم أنزلا سروالهما في الوقت نفسه ورأيت قطعتين صغيرتين بلون أحمر يميل إلى البنفسجي. أغمضت عينيّ قرفاً. بينما كانا يرفعان سروالهما أضافا قائلين:

– أنت تعرف، في قرية جدّتنا، رأينا شخصاً يقود درّاجتك. أقسم بالله.

6

أيقظني صوت أبي المبحوح: «كابي! كابي!». نهضت بسرعة خوفاً من أن أكون قد تأخرت عن المدرسة. كم كان يصعب عليّ النهوض من الفراش وكان أبي دائماً يناديني. أما آنا فكانت دائماً تسبقني، تكون قد استعدّت ومشّطت شعرها ووضعت الحبكات، ثم دهنت جسمها بحليب جوز الهند، ونظفت أسنانها، ولمّعت حذاءها، لا بل كانت تفكّر بوضع مِطرتها في الثلاجة قبل يوم كي يبقى الماء بارداً طوال فترة الصباح. كانت تقوم بواجباتها المدرسية مسبقاً وتحفظ دروسها غيباً. طفلة خارقة أختي آنّا. لطالما راودني شعور بأنها أكبر مني على الرغم من كونها أصغر مني بثلاث سنوات. لدى خروجي إلى الرواق، لاحظت أن باب غرفة والدي مغلق، كان لا يزال نائماً. مرة أخرى سقطت في الفخ: كان الببغاء قد قلّده.

ذهبت وجلست على الشرفة مقابل قفصه. حيث كان يأكل الفول السوداني ممسكاً به بقوة بين مخالبه، يهرس بمنقاره المعقوف القشرة كي يُخرج منها حبات العبيد. نظر إليّ برهة بحدقته السوداء داخل عينه الصفراء، ثم صفّر مطلع النشيد الوطني الفرنسي الذي علمّه إياه أبي، قبل أن يُخرج رأسه من بين قضبان القفص كي أداعب أعلى رأسه. كانت أصابعي تغوص في ريشه الرمادي وأحسّ بجلد عنقه الوردي الساخن.

وفي الفناء كانت هناك مجموعة من طيور الإوز تمشي في رتل بعضها وراء بعض. مرّت من أمام الحارس الليلي الجالس على حصير وقد غطّى جسده بغطاء رمادي ثخين حتى ذقنه ومعه مذياعه الصغير الذي كان يبثّ أخبار الصباح بلغة الكيروندي. في اللحظة نفسها اجتاز بروتيه البوابة وعبر الممر ثم صعد الدرجات الثلاث لسلّم الشرفة وألقى عليّ تحية الصباح. كان قد هزُل كثيراً وصارت قسماته المشدودة تعطيه مظهر عجوز، هو الذي كان حتى في الزمن العادي يبدو أكبر سنّاً من عمره الحقيقي. لم يكن قد جاء إلى العمل في الأسابيع الأخيرة بسبب البرداء[9] التي كادت تودي بحياته. كان أبي قد دفع جميع النفقات الطبية والجلسات لدى المعالج المحلّي. لحقت به إلى المطبخ حيث خلع ملابسه المدنية ليلبس ملابس الخدمة: قميص بالٍ، سروال قصير جداً وصندل من البلاستيك.

– هل تفضّل البيض عجّة أو دون خفق سيد غابرييل؟ سألني وهو يتفحّص الثلاجة.

– بيضتان مقليّتان من فضلك بروتيه.

جلست أنا وآنا على الشرفة ننتظر الإفطار عندما وصل أبي. كان على وجهه بعض الجروح الصغيرة وبقايا معجون الحلاقة وراء أذنه اليسرى. فوق صينية واسعة، أحضر لنا بروتيه إبريقاً من الشاي، مرطبان عسل، إضافة إلى صحن صغير من الحليب المجفّف، وزبدة، مربّى الكشمش، وفي طبق خاص البيض المقلي المقرمش قليلاً كما أحبّه.

– صباح الخير بروتيه! قال أبي عندما رأى وجهه الشاحب.

ردّ الطباخ بإيماءة خجولة من رأسه.

– يبدو أنك في تحسّن!

– نعم أنا أتحسّن، شكراً جزيلاً سيدي. شكراً على مساعدتك. عائلتي ممتنّة لك جداً. نحن نصلّي من أجلك يا سيدي.

– لا تشكرني، ما دفعته لعلاجك سوف يُقتطع من مرتباتك القادمة، تعرف ذلك جيداً، قال أبي بصوت حياديّ.

عبس وجه بروتيه. أخذ الصينية واختفى في المطبخ. وصل دوناتيان بخطى متهادية حيث كان يرتدي نوعاً من السترات بأكمام قصيرة من قماش خفيف قاتم اللون، دون قميص ولا ربطة عنق، كان موبوتو قد فرضها على الزائيريين للتحرّر من الزيّ الاستعماري. كان دوناتيان رئيس عمال أبي منذ عشرين عاماً، موظّفه الأكثر وفاءً. في الورشات كان العمال ينادونه «مزه» أي العجوز مع أنه لم يبلغ الأربعين. كان دوناتيان زائيرياً، بعد أن نال الشهادة الثانوية، وصل إلى بوروندي للعمل في معمل زيت النخيل في رومونج الذي كان والدي مشرفاً عليه في ذلك الحين. لم يعد إلى زائير قط، بل كان يعيش في شمال المدينة في حيّ كامانج مع زوجته وأولاده الثلاثة. كانت تظهر من جيب قميصه أغطية أقلام الحبر. وحين كان يتاح له، كان يقرأ مقاطع من إنجيل يحتفظ به في جيب من جلد التمساح. في صباح كل يوم، كان أبي يعطيه التعليمات لبقيّة النهار ويعهد إليه بمبلغ من المال كي يدفع للعمال المياومين.

بعد لحظات قليلة، دخل إينوسان إلى الشرفة كي يُعيد إلى أبي مفاتيح شاحنة الخدمة الصغيرة. إنه شاب بوروندي بالكاد بلغ العشرين، طويل القامة، نحيل، تخترق جبينه ندبة أفقية تمنحه مظهراً صارماً يحافظ عليه بكل طيبة خاطر. كان يلاعب باستمرار بين زاويتي فمه مسواك أسنان ممضوغاً ألف مرة. يلبس سروالاً واسعاً وقبّعة بيسبول وحذاء رياضياً أبيض وسواراً إسفنجياً حول معصميه بثلاثة ألوان: أحمر– أخضر– أصفر، هي ألوان رابطة الدول الإفريقية. هو في أغلب الأوقات بمزاج مقيت

ومتعالٍ مع بقية الموظّفين، لكن أبي كان يعتمد عليه كثيراً. كان إينوسان أكثر من سائق للمشروع، إنه رجل كل المهمّات، فهو يعرف بوجومبورا بشكل ممتاز وله مداخله الخاصة إلى كل مكان. إلى أصحاب المرائب في بويزا، بائعي النفايات الحديدية في بونييزي، تجار الحي الآسيوي، ضباط معسكر موها، عاهرات كويجابة، بائعي كرات اللحم في السوق المركزي... كان يعرف دائماً لمن يعطي الرشوة لتسيير المعاملات الإدارية المحجوزة منذ أشهر فوق مكاتب الموظفين الصغار. لم يكن رجال الشرطة يوقفونه قط وأولاد الشوارع يحرسون سيارته مجاناً.

بعد أن أعطاه أبي تعليماته، أفرغ إبريق الشاي في أصيص نبتة دفلى أوراقها ذابلة، صفّر لمدة ثانيتين النشيد الفرنسي للببغاء وقفزنا جميعاً إلى داخل السيارة.

7

تقع المدرسة الفرنسية في بوجومبورا فوق قطعة أرض فسيحة، تضمّ في مبانيها من الحضانة وحتى الصف النهائي. كان هناك مدخلان أساسيان: من جهة ملعب الأمير لويس رواغازور وجادّة الاستقلال مدخل الكبار الذي يطلّ مباشرة على المبنى الإداري وصفوف المدرسة والثانوية، وعند زاوية شارع موبيغا وجادة أوبرونا مدخل الصغار والحضانة. كانت المدرسة الابتدائية في الوسط. وبحكم العادة، كان والدي يُنزلنا عند مدخل الصغار.

– سوف يعود إينوسان لأخذكما عند منتصف النهار ويوصلكما إلى دكان أمكما. أعود غداً، لديّ ورشة في داخل البلاد.

– حسناً بابا، قالت آنّا بكل رزانة.

– غابرييل، السبت القادم سوف ترافق إينوسان ودوناتيان إلى سيبيتوك من أجل قصة الدراجة. يجب أن تكون معهما لتتحقّق منها تماماً. لا تقلق، سوف نعثر عليها.

في صباح ذاك النهار كان الصف يغلي غلياناً. سلّم المعلّم لكل منا رسالة

مُرسلة من قبل طلّاب الصف السادس في أورليان/ فرنسا. كنا في أشدّ الحماسة لاكتشاف مراسلينا. على مُغلّفي، كُتب اسمي بأحرف ورديّة كبيرة تحيطها الأعلام الفرنسيّة والنجوم وبعض القلوب. كانت تنبعث من الورقة رائحة عطر حلوة. فتحت الرسالة بعناية، وكان الخطّ مُنتظماً ومائلاً نحو اليسار.

الجمعة في 11 كانون الأول/ ديسمبر 1992

عزيزي غابرييل.

اسمي لور وعمري عشر سنوات. أنا في الصف السادس مثلك. أسكن في أورليان في بيت له حديقة. أنا طويلة القامة، شعري أشقر يصل إلى كتفيّ، عيناي خضراوان ولديّ نمش على وجهي. أخي الصغير اسمه ماتيو. والدي طبيب ووالدتي لا تعمل. أحبّ أن ألعب كرة السلّة. أعرف تحضير فطائر الكريب والكاتو. ماذا عنك؟

أحبّ أن أغنّي وأرقص. وأنت؟ أحب مشاهدة التلفزيون. وأنت؟ لا أحبّ المطالعة. وأنت؟ عندما سأكبر سأصبح طبيبة مثل والدي. في كل عطلة أذهب إلى ڤانديه عند أبناء عمي وأخوالي. السنة القادمة سأزور حديقة ترفيهية جديدة اسمها ديزني لاند. هل سمعت بها؟ هل يمكن أن تُرسل لي صورتك؟

أنتظر ردّك بفارغ الصبر.

قبلة.

لور

ملاحظة: هل استلمت الأرز الذي أرسلناه إليكم؟

كانت لور قد دسّت صورتها داخل المُغلّف. كانت تشبه إحدى دمى آنّا. ألقت

هذه الرسالة الاضطراب في قلبي. احمرّ وجهي لدى قراءتي كلمة «قبلة». كان الأمر أشبه بتلقّي طرد مليء بأطايب الحلوى، راودني إحساس كأنني أفتح أبواب عالم سرّي لم أكن أتخيّله. لور، تلك الفتاة الفرنسية، بعينيها الخضراوين وشعرها الأشقر في مكان بعيد كانت مُستعدّة لتقبيلي، أنا كابي من حيّ كينانيرا. خفت من أن يلحظ أحد انفعالي، سارعت ووضعت صورتها في أحد جيوب حقيبتي وأعدت الرسالة داخل المغلّف. بدأت أتساءل أي صورة لي سوف أرسلها إليها.

في الحصّة التالية، طلب منّا المعلّم أن نكتب ردودنا لمراسلينا.

الإثنين في 4 كانون الثاني/ يناير 1993

عزيزتي لور:

كابي هو اسمي. على كل حال، لكل شيء اسم. الشوارع، الأشجار، الحشرات... الحيّ الذي أسكنه مثلاً، اسمه كينانيرا. مدينتي بوجومبورا. وطني بوروندي. أختي، أمي، أبي، رفقائي، لكل واحد منهم اسم. اسم لم يختاروه، يولد معنا، هكذا تحدث الأمور. في أحد الأيام طلبت من أولئك الذين أحبّهم أن ينادوني كابي عوضاً عن غابرييل، كان هذا كي أختار بدلاً من أولئك الذين اختاروا عوضاً عني. إذاً، هل يمكن أن تدعيني كابي من فضلك؟ عيناي بلون الكستناء، لهذا لا أرى الآخرين إلا بلون الكستناء. أمي، أبي، أختي، بروتيه، دوناتيان، إينوسان، الرفقاء... كلهم بلون القهوة بالحليب. يرى كل إنسان العالم من خلال لون عينيه. بما أن عينيك خضراوان، سأكون بالنسبة إليك أخضر، أحب أشياء كثيرة وأشياء لا أحبها، مثلاً: أحب السكّر في المثلّجات ولكن لا أحب البرد. أحبّ بركة السباحة لكن لا أحب الكلور. أحب المدرسة من أجل الأصدقاء والجو فيها ولكن لا أحب الدروس. قواعد، تصريف أفعال، طرح، إنشاء، عقوبة، إنها المرح والقسوة! فيما بعد

عندما سأصبح كبيراً، سوف أصبح ميكانيكياً كي لا أتعطّل أبداً في الحياة. تجدر بنا معرفة إصلاح الأشياء عندما تتعطّل. ولكن لن يتحقق كل هذا قبل وقت طويل. لم أبلغ سوى العاشرة من عمري والوقت يمضي بطيئاً، لا سيما بعد الظهر لأن ليس هناك مدرسة، وفي يوم الأحد أيضاً، إذ إنني أضجر كثيراً عند جدّتي. منذ شهرين، كان هناك حملة تلقيح لكل تلاميذ المدرسة ضد مرض السحايا تحت المظلّة الكبيرة. لو وقعتِ فريسة مرض السحايا فسيكون الأمر خطيراً ولا تعودين قادرة على التفكير على ما يبدو، لهذا أصرّ المدير على الأهالي أن يأخذ الأولاد اللقاح. هذه السنة، سيكون لدينا انتخابات لرئيس جمهورية بوروندي. هذه هي المرة الأولى التي يحدث فيها ذلك. لن أتمكّن من الانتخاب، يجب أن أنتظر إلى أن أصبح ميكانيكياً ولكن سوف أعلمك باسم الفائز. هذا وعد!

إلى اللقاء.

قبلة.

كابي

ملاحظة: سوف أسأل عن موضوع الأرزّ.

8

في الصباح الباكر كنت على الطريق مع إينوسان ودوناتيان داخل الشاحنة الصغيرة التي كانت تسير أسرع من المعتاد مثقلة بأكياس الإسمنت والمعاول والفؤوس المكدّسة عادة في صندوق الشاحنة الخلفي. كنا نشكّل فريقاً مضحكاً نحن الثلاثة. كان هذا أول ما فكّرت به عندما صادفنا أول حاجز عسكري عند خروجنا من بوجا، ماذا كنا سنقول للجنود لو أوقفونا؟ إننا ذاهبون في مهمّة عند الفجر إلى الطرف الآخر من البلاد للعثور على دراجة هوائية مسروقة؟ كنا نبدو مشتبهاً فينا دون أدنى شك. إينوسان على المقود يعلك نكّاشة أسنانه الأبدية. كان هذا السلوك يثير اشمئزازي إذ كان كل شباب بوجومبورا قد بدأوا يمارسون هذه العادة. كانوا يريدون الظهور بمظهر رجولي، يظنّون أنفسهم رعاة بقر، بالأخص من هم على شاكلة إينوسان. لاشك أن أحد الصبية المساكين شاهد فيلماً لكلينت إيستوود في سينما كاميو بعد ظهر ذات يوم، وخرج منها راغباً بمنح نفسه بعض الأهمية، وبلمح البصر انتشرت هذه العادة في كل المدينة كالنار في الهشيم. في بوجومبورا، هناك شيئان يسريان بسرعة: الإشاعة والموضة.

لم يكن دوناتيان مرتاحاً في جلسته، لذلك كان عابس الوجه منذ انطلاقنا. كان يجلس في الوسط ولا يستطيع وضع ساقيه بشكل صحيح بسبب ذراع السرعة. كان

يجلس معوجّاً، كتفه اليسرى لصق كتف إينوسان وساقاه مائلتان. كنت قد أبديت رغبتي في الجلوس على النافذة لأنها كانت تُمطر وأنا أحبّ مشاهدة زحلقة قطرات المطر على طول الزجاج وألنفخ كي أرسم فوق البخار. كان هذا يساعدني على تمضية الوقت خلال الرحلات الطويلة داخل البلاد.

عندما وصلنا إلى سيبيتوك كان المطر قد توقّف. رفض دوناتيان أن نسلك الدرب المؤدّي إلى بيت جدّة التوأمين كي لا نخاطر وتغوص السيارة في الوحل الكثيف. اقترح أن نكمل الطريق سيراً على الأقدام، لكن إينوسان لم يكن يرغب في أن يتّسخ حذاؤه الرياضي. عندئذٍ مشيت أمام دوناتيان وتركنا إينوسان وحيداً في الشاحنة يلاعب بأسنانه عيدانه الخشبية الكريهة.

قد تظن نفسك فوق التلال وحيداً، لكنْ هناك دائماً عيون تراقبك وتُخبر عن وجودك في دائرة قطرها كيلومترات من مكانك بواسطة أصوات ترتدّ من بيوت الروغو[10]. لذلك، عندما وصلنا إلى منزل العجوز، كانت بانتظارنا وفي يديها كأسان من اللبن الرائب. لا دوناتيان ولا أنا كنا نتكلّم فعلياً الكيروندية، وبالأخصّ كيروندية ريف التلال المُعقّدة والشاعرية، تلك اللغة التي لا تكفي معها بضع كلمات من السواحلية وأخرى فرنسية كي تسدّ ثغرات لغتك. لم أتعلّم الكيروندية حقيقة قط، كان كل الناس في بوجا يتكلمون الفرنسية. كان دوناتيان زائيرياً من كيڤو، وزائيريو كيڤو لا يتحدّثون غالباً سوى السواحلية وفرنسية السوربون المتقنة.

أما هنا في داخل البلاد فإن الأمر مختلف تماماً. لا يمكن التحدّث مع أناس مثل جدّة التوأمين، لغتهم الكيروندية مصوغة بكثير من الدقّة، تعود أصولها إلى الكثير من الأمثال الموغلة في القِدم وتعابيرها من العصر الحجري. لم نكن أنا ودوناتيان على هذا المستوى، مع ذلك كانت العجوز تحاول أن تشرح لنا أين يمكن أن نجد المالك الجديد للدراجة. وبما أننا لم نكن نفهم كلمة واحدة مما تقول، عُدنا إلى

الشاحنة مع غودفري وبالتازار ابني الخالة الشهيرين، قاطعَيْ الزيزي، لموافاة إينوسان الذي كان يقع على عاتقه العمل كمترجم. عدنا إلى الطريق الأسفلتي مع ابنَيْ الخالة في الخلف بعد أن وافقا على إرشادنا إلى المكان. بعد كيلومترين من خروجنا من المدينة، وصل بنا درب ترابي آخر إلى قرية وجدنا فيها شخصاً اسمه ماتياس، ذاك الذي رآه التوأمان على الدراجة. كان ماتياس المقصود قد باعها إلى شخص اسمه ستانيسلاس من جيومبا. صعدنا مجدّداً إلى الشاحنة مع الشباب بالإضافة إلى ماتياس، ثم قبضنا على ستانيسلاس الشهير الذي كان قد باع الدراجة بدوره إلى نحّال في كوريجيتاري. ها نحن ننطلق مجدّداً باتجاه كوريجيتاري مع ستانيسلاس كراكب إضافي في الشاحنة. الشيء نفسه مع النحّال الذي أخذناه معنا في الشاحنة أيضاً كي يدلّنا على عنوان المالك الجديد، شخص يدعى جان بوسكو من جيتابا. وبمجرّد وصولنا إلى جيتابا، أعلمونا أن جان بوسكو في سيبيتوك. عدنا مرة أخرى إلى سيبيتوك، وهناك أخبرنا جان بوسكو أنه باع الدراجة توّاً إلى مزارع في جيتابا...

استدرنا نصف استدارة. غير أن رجال الشرطة أوقفونا على طريق سيبيتوك الرئيسي يسألوننا ماذا كنا نفعل، ولماذا يتكدّس تسعة أشخاص في السيارة. بدأ إينوسان يروي قصة الدراجة المسروقة والبحث المتتالي عن المالك الجديد. كان قد حلّ منتصف النهار وبدأ الفضوليون يتوافدون. وبسرعة البرق، تجمّع مئات الأشخاص حول السيارة.

كان الملهى المركزي يقع أمامنا مباشرة، أكبر مركز بيع بالمفرّق للمشروبات في المدينة. كان رئيس البلدية وبعض أعيان المنطقة ينهون هناك اقتسام سفود لحم الماعز المُشرّب ببيرة الموز الساخنة. لفت نظرهم بسرعة الحشد المجتمع حولنا. نهض رئيس البلدية ببطء عن كرسيه الصغير وتجشأ وهو يرفع سرواله، أصلح حزامه وتقدّم نحونا مثل حرباء تعبة، كان يشقّ الحشد بكرشه الكبير وشفتيه المتدلّيتين اللامعتين من الدهن، وعلى قميصه الأخضر بلون براز الإوزّ بعض بقع اللحم. كان

وجهه دقيقاً ومتطاولاً لكن مؤخّرته الضخمة الممتلئة كانت تعلو حتى وسط ظهره، وبطنه مرتخ كأنه بطن امرأة حامل على أبواب ولادتها. كان لرئيس البلدية هذا مظهر قرعة النارجيلة.

بينما كان كل هذا الجمع المتنافر يتجادل، تعرّفت إلى كاليكست بين الحشد، كاليكست الذي سرق دراجتي... بالكاد تسنّى لي الوقت كي أُطلق الإنذار حتى أطلق ساقيه للريح مثل أفعى المامبا الخضراء السريعة. المدينة بأسرها ركضت وراءه، مثلما يركضون وراء دجاجة لذبحها على الغداء. في المقاطعات الخاملة، لا شيء مثل بعض الدم المُراق في ساعة الظهيرة يمكن أن يقتل الوقت، ما يسمّونه العدالة الشعبية، أي العقاب بلا قانون، ولهذه الظاهرة فضائل إذ تبدو نوعاً من التمدّن. لحسن الحظ، في ذلك اليوم، لم يكن للشعب الكلمة الأخيرة. ألقوا القبض على كاليكست، لكن رجال الشرطة وضعوا حداً لضرب العصي الديموقراطي. حينئذٍ حاول رئيس البلدية أن يستعيد السيطرة على الحادث: وقف موقف الحكيم محاولاً تهدئة النفوس المتحمّسة بخطاب طنّان عن أهميّة أن يكون المرء مواطناً شريفاً. ولكن إن أخذنا في الاعتبار ساعة الخطاب والحرارة السائدة، فإن حماسته الشاعرية باءت بالفشل. توقّف في منتصف الخطبة وعاد إلى مكانه الحقيقي أمام البيرة كي يهدّئ خاطره. كان كاليكست قد شُوّه من الضرب، اقتيد إلى السجن العام وسارع دوناتيان إلى تقديم شكوى.

وُضع كاليكست وراء القضبان، لكن هذا لم يحلّ مشكلة دراجتي. قرّرنا العثور على المزارع جيتابا مرة أخرى. ومن أجل هذا كان ينبغي علينا أن نسلك مُجدّداً الدرب المؤدّي إلى بيت الجدّة. إينوسان الذي لا يمشي إلا على هواه، سار فوق طريق موحل رغم تحذيرات دوناتيان المُلحّة عن مخاطر غوص العجلات في الوحل. في المكان الذي دلّونا عليه كان هناك منزل صغير من اللبن تغطّي سطحه أوراق الموز. كان الكوخ على قمّة تلّة؛ وبلمح البصر أسرنا المنظر. كان المطر قد غسل

السماء، وأشعّة الشمس ترسم على الأرض المبلّلة دوّامات من الضباب الوردي اللون فوق السهل الأخضر الفسيح الذي تعبره مياه نهر روسيزي الحمراء. كان دوناتيان يتأمّل المنظر بإعجاب وبشيء من الصمت الورع، لكن إينوسان لم يكن يعبأ به إطلاقاً، إذ كان يزيل القذارة من تحت أظفاره بسواكِ الأسنان البغيض نفسه الذي كان يضعه منذ قليل في فمه. كل جمال العالم لا يعنيه، كان يهتمّ بقذارات جسده فحسب.

في الفناء، كانت هناك امرأة جاثية على حصير مُنهمكة بطحن الذرة البيضاء، يجلس وراءها على كرسيّ صغير رجل دعانا للاقتراب، كان هذا هو المزارع. في بيتنا عندما كان يصل أحد الغرباء، قبل أن يقول له أبي مرحباً، كان يصرخ بانزعاج: «ماذا تفعل هنا؟» هنا، كان الأمر مُعاكساً، ثمة شيء من التحفّظ والتهذيب. لا يشعر المرء بأنه غريب. على الرغم من أننا وصلنا بغتة بوجوهنا المضحكة إلى فنائهم المنعزل فوق قمة الجبل، لكننا شعرنا بالمودّة وكأنهم كانوا بانتظارنا منذ وقت طويل. قبل حتى أن يعرف سبب زيارتنا، عرض علينا الجلوس في فناء بيته. كان قد عاد توّاً من الحقول. قدماه العاريتان جفّ الطين العالق بهما، قميصه مليء بالرقع، رفع بنطاله القطني حتى الركبتين. كان وراءه معول يغطيه التراب معلّقاً على جدار الكوخ. أحضرت لنا فتاة شابة ثلاثة كراس بينما كانت المرأة تبتسم لنا وهي تطحن حبّات الذرة بين حجري الرحى.

بالكاد جلسنا على كراسينا حتى ظهر في الفناء صبيّ في سنّي يدوّر دواستي درّاجتي. لم أفكّر لحظة واحدة، قفزت عن الكرسي واندفعت نحوه كي أمسك المقود. وقفت العائلة وراحت تتساءل عمّا يجري وترمقنا بنظرات حائرة. كان الولد مدهوشاً حتى إنه لم يقاوم عندما خطفت الدراجة من بين يديه: ساد نوع من التردّد أثار ضيق الجميع، فقام دوناتيان بهزّ كتف إينوسان يأمره أن يبدأ الكلام بلغة الكيروندي ليشرح سبب حضورنا. قام إينوسان بجهد يفوق البشر كي ينزع نفسه عن كرسيه بعد أن كان قد استرخى إلى أقصى الحدود. بدا سئماً من تكرار التفسيرات نفسها التي قدّمها قبل

وقت قصير لرجال الشرطة، لكن انتهى به المطاف إلى رواية كل القصّة من البداية وبصوت رتيب، وكان أفراد العائلة يُصغون إليه بصمت. لاح وجه الفتى وهو يتراخى مع ازدياد فهمه للموقف. عندما انتهى إينوسان من حكايته، بدأ الفلاح يشرح بدوره وهو يميل برأسه نحو اليسار ويفتح راحتيّ يديه نحو السماء، كأنه يتوسّل إلينا أن نُبقي على حياته، كان يقول إنه بذل نفسه من أجل أن يُقدّم هذه الهديّة لابنه وقد ادّخر المال لوقت طويل، وإنهم أناس فقراء ومسيحيون صالحون. كان يبدو وكأن إينوسان لا يُصغي إليه، كان يحكّ داخل أذنه بعود أسنانه ثم يتفحّص بكثير من الاهتمام الأوساخ التي حصدها في طرف نكّاشته. بدا دوناتيان مضطرباً من ارتباك مُضيفنا ولم يجرؤ على قول شيء. وبينما كان الفلاح مستمراً في الكلام اقترب إينوسان منّي، حمل الدراجة ووضعها في صندوق الشاحنة. كان قد ضاق ذرعاً، نصح العائلة بكل برود أن يعودوا إلى المسؤول عن مصيبتهم، ذاك الموجود الآن في سجن سيبيتوك. كان يقول لهم: «ليس عليكم سوى تقديم شكوى ضد كاليكست لاستعادة مالكم». ثم أشار إليّ أن أصعد إلى الشاحنة. انضمّ إلينا دوناتيان وهو يجرّ ساقيه جرّاً. لا حظت أنه كان يفكّر مليّاً لإيجاد حلّ بأقصى سرعة. عندما جلس بقربي في قمرة الشاحنة تنهّد بعمق.

– غابرييل رفقاً بهم، دعنا لا نأخذ الدراجة. ما نقوم به الآن أسوأ من السرقة، نحن نكسر قلب طفل.

– إلّا هذا، ردّ عليه إينوسان.

– وماذا عنّي؟ أجبت مستاءً، أنا أيضاً تحطّم قلبي عندما سرق كاليكست دراجتي.

– بالتأكيد، ولكن لهذه الدراجة أهمية أقلّ لديك مما لذاك الصبي، تابع دوناتيان. إنه فقير جداً وقد اشتغل والده وكدّ كي يقدّم لابنه هذه الهدية. إذا رحلنا

الآن مع هذه الدراجة فلن يكون لديه الفرصة للحصول على واحدة أخرى أبداً.

رمقه إينوسان بنظرة ثاقبة.

– بماذا تخدعنا؟ هل تظن نفسك روبن هود؟ هل لأن هذه العائلة فقيرة يجب علينا أن نترك لها مُلكاً ليس لها؟

– إينوسان، نحن ترعرعنا في هذا الفقر ونعرف أنهم لن يستعيدوا مالهم أبداً، وسوف يفقدون ظلماً في النهاية مدّخرات عدّة سنوات. أنت تعرف تماماً كيف تسير الأمور يا صديقي.

– لست صديقك! إليك هذه النصيحة: كفّ عن الإشفاق على هؤلاء الناس. في هذه المناطق كل واحد منهم كاذب وسارق أكثر من الآخر.

– غابرييل، التفت دوناتيان ناحيتي. يمكننا أن نقول للمعلّم إننا لم نعثر على دراجتك وسوف يشتري لك واحدة أخرى. سيكون هذا سرّنا الصغير الذي سيسامحنا الله عليه لأنه عمل خير من أجل مساعدة ولد فقير.

– هل تنوي الكذب؟ قال إينوسان. كنت أظن أن إلهك الطيّب يحرّم الكذب. دع غابرييل وشأنه وكفّ عن تحميله الذنب. على كل حال، هذا الصبي ليس أكثر من فلاح تافه، ماذا سيفعل ب. BMX؟ لنذهب!

لم أرغب بالالتفات أو بالنظر عبر المرآة العاكسة. أنجزنا مهمّتنا وعثرنا على دراجتي والباقي ليس من شأننا كما كان يقول إينوسان.

عندما غصنا في الوحل بعد دقائق كما توقّع دوناتيان، بدأ يتلو مقاطع من الإنجيل عن الأيام الصعبة والبشر الأنانيين وآخر الأزمنة، وكان يقول بصوت خافت أشياء كثيرة أرعبتني تشير إلى أن الله كان يعاقبنا على فعلتنا الشرّيرة. على طول طريق العودة تظاهرت بالنوم تفادياً لنظراته. ومع أنني كنت أرى ما قمنا به عادلاً إلا

أن شعوراً بالعار كان يتفاقم في داخلي. عندما وصلت إلى البيت أعلنت لإينوسان ودوناتيان أنني لن ألمس هذه الدراجة بعد الآن أبداً كي أكفّر عمّا فعلت. حدّق إينوسان إلى وجهي غير مصدّق ثم قال بنبرة حانقة: «طفلٌ مُدلّل» قبل أن يذهب إلى الكشك ليشتري لنفسه علبة عيدان أسنان جديدة. انحنى دوناتيان عليّ، كان رأسه الكبير المربّع على مسافة سنتمترات من وجهي، وأنفاسه اللاذعة تكشف عن معدة فارغة وحامضة. أما عيناه المليئتان بالغضب البارد فكانتا تُحدّقان إليّ حتى أعماق روحي.

– الشرّ قد ارتُكب أيها الصغير، قالها بشكل بطيء ومفصّل.

9

في بوجومبورا، كانت جدتي تعيش في منزل صغير مكسو بطبقة إسمنتية خشنة وخضراء، يقع في منطقة مكتب المدن الإفريقية، نغاغارا، الحي رقم /2/. كانت تعيش مع أمها أي جدتي الأولى روزالي وابنها خالي باسيفيك الذي كان في سنته الأخيرة في ثانوية سان ألبير. كان شاباً وسيماً جداً باسيفيك هذا. بنات الحي كلّهن يركضن وراءه، لكن هو لم يكن يحب سوى قصص الرسوم المصوّرة والأغاني وغيتاره. لم يكن صوته جميلاً مثل أمي لكن قوّة أدائه كانت رائعة. كان يعشق المغنين الفرنسيين الرومانسيين الذين كنا نسمعهم باستمرار في المذياع، أولئك الذين يتحدّثون عن الحب والأحزان وعذاب الحبّ. وحين كان يُعيد غناء هذه الأغاني، تغدو كأنها أغانيه. كان يُغمض عينيه، يُغضّن وجهه، يبكي، حينذاك كانت كل العائلة تلوذ بالصمت، حتى العجوز روزالي التي لم تكن تفهم كلمة فرنسية واحدة. كنا نصغي إليه دون حراك، فقط كانت أطراف الآذان تتحرّك مثل أفراس النهر الطافية في مياه المرفأ.

في منطقة «مكتب المدن الإفريقية» OCAE، كان أكثر الجيران روانديين، من الذين غادروا بلادهم هرباً من القتل والمجازر والحروب وحركة البوغروم[11] والتصفية العرقية والتدمير والحرائق وذباب التسي تسي والنهب والتمييز العنصري والاغتصاب

والجرائم وتصفية الحسابات وما أعلمني أيضاً؟ مثل أمي وعائلتها الذين فرّوا من كل هذه المشاكل فصادفوا في بوروندي مشاكل جديدة: فقر، إقصاء، حنين إلى الوطن، اشتياق، مشاكل اللاجئين.

في السنة التي بلغت فيها الثامنة من عمري اندلعت الحرب في رواندا. حدث ذلك في بداية سنتي الدراسية وأنا في الصف السادس. سمعنا على قناة RF1 أن هناك ثواراً يطلق عليهم تسمية الجبهة الوطنية الرواندية (FPR) هاجموا رواندا بغتة. كان جيش هذه الجبهة مؤلفاً من أطفال مهاجرين روانديين –جيل أمي وخالي باسيفيك– القادمين من بلاد متاخمة: أوغندا، رواندا، زائير... رقصت أمي طرباً عندما سمعت الخبر. لم يسبق أن شاهدتها في حياتي سعيدة هكذا.

غير أن سرورها انقلب إلى حزن بعد فترة قصيرة، بعد أيام قليلة سمعنا نبأ مصرع ألفونس، وهو الأخ الثاني لأمي وبكر العائلة ومصدر فخر جدتي. رجل لامع، مهندس في الفيزياء والكيمياء مُجاز من أكبر جامعات أوروبا وأميركا. ألفونس الذي أعطاني دروساً في الرياضيات وأوحى إليّ بأن أكون ميكانيكياً. كان أبي يحبّه كثيراً ويقول عنه: «بوجود عشرة من أمثال ألفونس ستغدو بوروندي سنغافورة في وقت قياسي». كان ألفونس الأول على الصفّ رغم سلوكه المشاغب الذي يناقض ذلك. يمازح طوال الوقت، يضجّ، يدغدغنا تحت إبطينا ويقبّل والدتي من عنقها كي يضايقها. وعندما كان يجلجل ضحكته كان السرور يملأ فضاء صالون جدتي الصغير.

كان قد رحل إلى الجبهة دون أن يخبر أحداً ولا حتى برسالة. كانوا في الجبهة الوطنية يسخرون من شهادته. كان بالنسبة إليهم جندياً مثل الآخرين. مات هناك كبطل باسل في سبيل وطن لم يعرفه ولم يطأ أرضه قط! مات هناك في الوحل، في حقل الشرف داخل حقل بطاطا المينهوت، كمن لم يعرف الألف من العصا ولم يتعلّم

القراءة والكتابة قط.

عندما كان يفرط في شرب الكحول قليلاً كان ينتابه مزاج سوداويّ، مزاج الأولاد المُبعدين. ذات نهار، وكأنه كان يشعر بدنوّ أجله، راح يتحدّث عن جنازته. قال إنه يريد احتفالاً كبيراً يجمع المهرّجين ولاعبيّ الخفّة والعباءات الملوّنة كما في السوق المركزية ونافخي النار وصلوات تحت الشمس، وبالتأكيد لا يريد مراثي محزنة ولا تراتيل سمعان[12] أو ثرثرات رُتبة الدفن. يوم مأتم خالي ألفونس، أخذ باسيفيك غيتاره وغنّى له أغنيته المُفضّلة. أغنية تحكي عن محارب قديم يفضح عبثية الحرب، أغنية على صورة ألفونس، مضحكة في ظاهرها وحزينة في أعماقها. لكن باسيفيك لم يتمكّن من إكمال الأغنية حتى النهاية. خانته أوتار غيتاره.

الآن باسيفيك هو الذي قرّر الذهاب إلى الحرب. كان قد تحدّث إلى أمي بهذا الشأن. هذا الصباح عندما عدنا من قدّاس الأحد وجلسنا إلى المائدة، لم تنتظر أمي كي تدخل في الموضوع.

– باسيفيك، نحن قلقون عليك. اتصل الأستاذ كيميني بالجدّة، ألم تعد تذهب إلى مدرسة سان ألبير؟

– كل رفقائي الروانديين في الجبهة. أتحضّر أنا أيضاً يا أختي الكبرى!

– عليك التريّث. اتفاقات السلام سوف تؤتي ثمارها. كنت في بيت الخالة أوزيبي في كيغالي منذ عشرة أيام، لديهم الأمل، يعتقدون أن الأمور يمكن أن تُحل عن طريق السياسة. كن صبوراً من فضلك!

– لا أثق إطلاقاً بأولئك المتطرّفين. الحكومة الرواندية تخدع المجتمع الدولي، بينما في الداخل يستمرّون بتسليح الميليشيات والحضّ على العنف في وسائل

الإعلام، يستمرّون في ارتكاب المجازر والقتل الممنهج. يتمسّك السياسيون بخطاب الكراهية، يدعون الشعب إلى طردنا، إلى رمينا في نهر نيابارونغو. نحن أيضاً يجدر بنا أن ننظّم أنفسنا، علينا أن نستعدّ للقتال في حال فشل اتفاقيات السلام. يتعلّق الأمر ببقائنا على قيد الحياة يا أختي الكبرى.

لم تقل العجائز شيئاً. أغمضت أمي عينيها وبدأت تفرك صدغيها. كان مذياع الجيران يطلق تراتيل دينية وكنا نسمع رنين ملاعقنا على الأطباق. حرّكت نسمة خفيفة ستارة النافذة حيث كانت تلتمع فوق بشرة باسيفيك الجميلة طبقة رقيقة من العرق بسبب الحرارة. كانت قطعة اللحم التي يمضغها تُشنّج عضلات فكّه واكتشفت ما لا يمكن أن يُقال حول المائدة، ما كان حاضراً مثله مثل الذباب الذي ترفعه آنّا من صلصة الطماطم: تنبأت بموت باسيفيك.

بعد الغداء أمرت جدّتي الجميع بالذهاب للراحة. كعادتي كنت آخذ القيلولة في غرفة باسيفيك التي كانت تشغلها أمي عندما كانت فتاة. لم يكن للغرفة نوافذ، في كل جانب من طرفي الغرفة الصغيرة سرير عسكري فحسب، وثمة مصباح مطلي بالأحمر يتدلّى من طرف شريط عارٍ كان يُلقي ضوءاً كئيباً على الجدران الخضر المغطّاة بالبوسترات. كان باسيفيك ينام على نوابض السرير مباشرة ويقول إن هذا يساعده على التكيف مع ظروف الحياة القاسية في الجبهة. في الصباح كان يستيقظ باكراً للتمرّن على الشاطئ مع مجموعة من الشباب الروانديين. كانوا يركضون على الرمال على طول الساحل. في بعض الأيام، كانوا لا يأكلون سوى حفنة من الفاصولياء كي يختبروا إحساس الجوع والحرمان. بينما كنت مستلقياً على السرير، رحت أتذكّر صورة ذلك الصبي الذي استعدت منه الدراجة في الأمس، ودرس الأخلاق من دوناتيان عن عبرة الله، بذل النفس، التضحية وكل تلك الأشياء التي تجعلنا نشعر بالذنب على نحوٍ فظيع... ما زلت منذ البارحة أشعر بأنني أناني ومُتكبّر، شعرت بالخزي من هذه القصة، تحوّلت من ضحية إلى جلّاد، فقط لأنني

أردت استعادة ما هو ملكي. كنت بحاجة إلى الحديث مع أحد ما كي أُبعد أفكاري الكئيبة. همست:

– باسيفيك، هل أنت نائم؟

– امممممم...

– هل تؤمن بالله؟

– ماذا؟

– هل تؤمن بالله؟

– لا، أنا شيوعي. أؤمن بالشعب. دعني الآن!

– من هذا الذي على ورقة التقويم فوق سريرك؟

– فريد رويجيما زعيم الجبهة الوطنية الرواندية. إنه بطل. بفضله نحن نناضل. لقد أعاد لنا كرامتنا.

– أنت ذاهب لتحارب معه إذاً؟

– لقد مات في بداية الهجوم.

– آه... من قتله؟

– أنت تطرح الكثير من الأسئلة أيها الصغير. نم!

استدار باسيفيك ناحية الجدار وصدر عن السرير صرير معدني. لم أكن أغفو ساعة القيلولة، ولم أفهم قط ما الغاية من هذا العمل، فالليل يكفيني لاستعادة قواي، لذلك كنت أنتظر أن يمضي الوقت. كان يُسمح لي بالنهوض فقط في حال سماعي أحد الكبار يمشي في البيت. كنت أرصد أدنى صوت، أرقب أول حركة تعطي

الإشارة كي أقفز مغادراً السرير. أحياناً كان عليّ الانتظار لساعتين. كان باب الغرفة الموارب يفضي إلى الصالون ويسمح بعبور شيء من الضوء. كنت أتفحّص الصور المُعلّقة على الجدران وهي عبارة عن صفحات من المجلّات مُلصقة بالصمغ بغير إتقان: نجوم فترة شباب أمي تجاور نجوم باسيفيك المفضّلين، فرانس غال بين مايكل جاكسون وجان بيير بابان، صورة للبابا يوحنا بولس الثاني في بوروندي تتعدّى على ساق تينا تيرنر وغيتار جيمي هندريكس، صورة إعلان كيني لمعجون الأسنان يغطّي بوستر جيمس دين. وكي أمضي الوقت كان يحدث أحياناً أن أسحب إحدى مجلات القصص المصوّرة الخاصة بباسيفيك والمبعثرة تحت سريره: ألان شوفالييه، صحيفة سبيرو، تان تان، راهان...

عندما عادت الحركة إلى البيت سارعت بالخروج من سريري كي أنضمّ إلى روزالي. بعد ظهر كل يوم، كان لديها الطقس نفسه. كانت تجلس على الحصير في الفناء الخلفي، تفتح علبة تبغها المصنوعة من العاج النباتي[13]، تأخذ بين أصابعها تبغاً وتحشو غليونها الخشبي، تقدح عود ثقاب وتسحب نفساً وهي مغمضة العينين، نفخات صغيرة، نكهة بواكير التبغ المقطوف حديثاً. فيما بعد كانت تُخرج من كيس بلاستيكي ألياف نبات الباهرة أو أوراق الموز كي تصنع أطباقاً توضع تحت الكؤوس أو سلالاً مخروطية. كانت تبيع أشغالها اليدوية في مركز المدينة لتكسب بعض المال لأهل بيتها الذين كانوا يعيشون بفضل مرتّب جدتي الممرّضة ومساعَدات أمي المنتظمة أيضاً. كان لروزالي شعر جعد، أشيب، ينتصب مثل قبّعة طباخ فوق رأسها فيمنح رأسها شكلاً مستطيلاً تبدو أبعاده غير متناسقة، كان يبدو مع عنقها النحيل الذي يسنده كأنه كرة رُكبي وضعت بتوازن فوق إبرة. روزالي لها من العمر مائة عام تقريباً. كان يحدث أن تحكي قصة ملك ثار على المستعمرين الألمان ثم على البلجيكيين ونُفي إلى الخارج لأنه كان يرفض التحوّل إلى المسيحية. لم أكن أفلح في الاهتمام بحماقات الملكية هذه ولا بالمبشرين البيض. كنت أتثاءب ويتضايق مني باسيفيك لافتقاري إلى

الفضول، وكانت أمي تردّ عليه بأن أولادها فرنسيون صغار ويجب عدم إقلاقهم بقصصهم الراوندية. كان باسيفيك يُمضي ساعات وهو يُصغي إلى العجوز تحكي له عن راوندا القديمة ومآثر الجيش العظيمة، عن الشعر الرعوي وقصائد المديح ورقصات الإبنتو[14] وأنساب القبائل وقيمهم الأخلاقية.

كانت الجدّة تلوم أمي لأنها لا تُحدّثنا باللغة الكينيارواندية، كانت تقول إن هذه اللغة سوف تسمح لنا بالحفاظ على هويّتنا رغم المنفى، وإلا لن نكون روانديين صالحين أبداً، «أولئك القادمين من رواندا». كانت أمي تهزأ بهذه الحجج، بالنسبة إليها نحن أطفال صغار بشرتنا بيضاء مسمرّة قليلاً، ولكنّا بيض رغم كل شيء. إذا حدث وتلفّظنا بأي كلمات باللغة الرواندية كانت تهزأ حالاً بلهجتنا. وسط كل هذا. بوسعي أن أقول لكم إنني لم أكن أبالي بأي شكل برواندا ولا بملكيتها ولا بأبقارها ولا بجبالها أو بأقمارها أو حليبها أو عسلها أو نبيذ عسلها النتن.

كان بعد الظهيرة يشارف على نهايته وروزالي لا تزال تروي عن زمنها وذكرياتها العتيقة وعن رواندا المثالية. كانت تردّد القول: «لا أريد الموت في المنفى مثل الملك موزينغا». كم كان يعنيها أن تموت فوق أرضها، في وطن أجدادها. كانت روزالي تتحدّث ببطء، برقّة، بنبرات عازف سيتار[15]، مثل همس لطيف. كانت الماء الزرقاء في عينيها قد جعلتهما زرقاوين، فتبدو دوماً وكأن دموعاً على وشك أن تتدحرج فوق خدّيها.

كان باسيفيك ينهل ملء أسماعه من أحاديث العجوز، يترنّح رأسه مستسلماً لهدهدة أشواقها. دنا منها كي يشدّ على يدها المسطّحة الصغيرة وهمس لها قائلاً: إن العذابات سوف تتوقّف وآن الأوان للعودة إلى ديارهم، بوروندي ليست بلادهم، وليس لديهم أية نيّة للبقاء لاجئين إلى الأبد. كانت العجوز متعلّقة بماضيها ووطنها الضائع والشاب يبيعها المستقبل، بلاد جديدة وحديثة لكل الروانديين دون تمييز، مع ذلك،

كان الاثنان يتحدّثان عن الشيء نفسه، عن العودة إلى الوطن، هي تنتمي إلى التاريخ وهو عليه أن يصنع التاريخ.

كانت تلفّنا رياح حارّة، تلتف حولنا لبرهة وترحل إلى البعيد حاملة معها وعوداً ثمينة، وكانت أولى النجمات تُضيء في السماء بخجل مُحدّقة إلى فناء جدتي الصغير؛ هنا على الأرض، في مربع المنفى، تتبادل عائلتي الأحلام والآمال التي تفرضها الحياة على ما يبدو.

10

في البداية كانت الفكرة فكرة جينو، كان يريد أن نختار اسماً لشلّتنا. بحثنا لوقت طويل، فكّرنا ب.«الفرسان الثلاثة»، لكنّا كنّا خمسة. لم يقترح التوأمان سوى أسماء مُبتذلة من نوع: «أصابع اليد الخمس» أو «أفضل الأصدقاء في العالم». فكّر جينو باسم أميركي. في تلك الفترة كانت تنتشر موضة الأميركيين في المدرسة، والكل كان يستخدم كلمة «cool» بلا انقطاع، الكل يمشي وهو يعرج، كانوا يقصّون شعورهم بشكل يُظهر الرسوم على رؤوسهم ويلعبون كرة السلة بملابس واسعة. لكن جينو استوحى الفكرة من فرقة الغناء الأميركية Boyz II Men[16] الذين كنا نشاهدهم أيام السبت في برنامج «ماوراء الصوت». اتفقنا على أن الاسم ملائم لأن هناك فرداً من أفراد هذه الفرقة بوروندي الأصل وهذا بمثابة تكريم له. على كل حال، لم نكن متيقّنين من ذلك، ولكن في بوجومبورا كان يشاع أن الشاب الطويل النحيل في فرقة بويز هو من نياكابيغا، على الرغم من عدم تأكيد أي صحفي لهذه المعلومات. كان جينو يريد هذا الاسم أيضاً: «كينانيرا بويز» كي يثبت القول إننا ملوك الشارع الجدد، وإن الحي تحت سيطرتنا ولا أحد يستطيع أن يفرض قانونه عليه.

كان زقاقنا عبارة عن شارع غير نافذ وهو منطقتنا التي نعرفها حقّ المعرفة، إذ كنا نعيش هناك نحن الخمسة. كان التوأمان يقيمان مقابل بيتي عند مدخل الشارع،

في أول بيت على اليسار. التوأمان خلاسيان، أباهما فرنسي وأمهما بوروندية، والدهما يمتلك محلاً لتأجير أشرطة الفيديو، بشكل خاص أفلام الكوميديا الأميركية وأفلام الحب الهندية. في أوقات بعد الظهيرة عندما كانت تُمطر بغزارة، كنا نلتقي في بيتهما ونمضي الوقت أمام شاشة التلفاز. كان يحدث أحياناً أن نشاهد بالخفية أفلام جنس للكبار ولكن لم نكن نحب ذلك كثيراً باستثناء أرمان الذي كان يُحدّق إلى الضوء بعينين جاحظتين وهو يحفّ نفسه على وسادة مثلما يحفّ كلب نفسه على ساق.

كان أرمان يسكن في منزل كبير من القرميد الأبيض في آخر الزقاق. والداه الاثنان بوروندیان، وهو كان الأسود الوحيد إذاً في الشلّة. فوالده قويّ البنية، خصلات شعره المجعّدة الطويلة تصل إلى شاربيه لتشكّل دائرة حول عينيه وأنفه، كان ديبلوماسياً لبروندي في البلاد العربية ويعرف شخصياً الكثير من رؤساء الدول. كان أرمان قد علّق فوق سريره صورة له وهو طفل بملابس الرضّع فوق ركبتي العقيد القذّافي. وبسبب أسفار والده الكثيرة، كان يعيش معظم وقته مع والدته وأختيه الكبيرتين وهما فتاتان متزمّتتان خشنتا الطباع لم أرهما تتبسّمان طوال حياتي. كانوا في عائلتهم صارمين ويضيّقون على أنفسهم، ولكن على الرغم من كل ذلك، قرر أرمان أن يرقص ويُهرّج في الحياة. كان يهاب والدهم الذي لم يكن يعود من سفره إلا للتشديد على سلطته على أولاده. ما من ملاطفات، ما من كلام رقيق البتّة! صفعة على الوجه ثم يعود على عجل ليستقلّ طائرته إلى طرابلس أو إلى قرطاج. النتيجة: كان لأرمان شخصيتان، الأولى في المنزل والثانية في الشارع. جهة طرّة وجهة نقش.

ثم هناك جينو، كبير الشلّة، أكبر منّا بسنة وتسعة أشهر. كان قد أعاد سنته الدراسية عمداً ليكون معنا في الصف نفسه. على كل حال، هكذا كان يبرر فشله. كان يعيش مع والده، وراء البوابة الحمراء وسط الزقاق، في بيت قديم من الطراز الاستعماري. كان والده بلجيكياً، أستاذاً في العلوم السياسية في جامعة بوجومبورا،

والدته روائية مثل أمي، لكننا لم نرها قط طوال حياتنا. أحياناً كان يخبرنا أنها تعمل في كيغالي وأحياناً أخرى أنها في أوروبا.

كنا نقضي وقتنا في الشجار، ولكن مع الأصدقاء لم يكن لهذا أي معنى، فقد كنا نحب بعضنا مثل إخوة. بعد ظهيرة كل يوم، وبعد الغداء، كنا نتسلل نحن الخمسة إلى قلب حيّنا وندخل إلى حافلة ڤولكس ڤاغن مهجورة لا أحد يعرف صاحبها مركونة وسط أرض بور. داخل السيارة، كنا نضحك، نتحدّث، ندخّن خفية سجائر السوبرماتش، ونُصغي إلى قصص جينو التي لا تُصدّق ونكات التوأمين، كما كان أرمان يكشف لنا عن خدع خارقة يمكنه القيام بها، كقلب جفنيه وإظهار باطنهما، لمس أنفه بلسانه، ليّ إبهامه إلى الوراء حتى تصل إلى ذراعه، فتح سدّادات الزجاجات بأسنانه الأمامية أو أن يقرط قرون الفلفل الحار دون أن يرفّ له جفن. داخل سيارة الڤولكس، كنا نقرر مشاريعنا، هروبنا، نزهاتنا الكبرى. كنا نحلم كثيراً، نرنو، وقلوبنا لا تطيق صبراً، إلى المسرّات والمغامرات التي تُخبّئها لنا الحياة. بالمختصر، كنا سعداء هانئين، داخل مخبئنا في الأرض البور من زقاقنا المسدود.

بعد ظهيرة ذات يوم، كنّا نتسكّع في الحيّ لقطف ثمار المانغا. كنّا قد تخلّينا عن تقنية رمي الحجارة لاقتلاع الثمار من الأشجار يوم رمى أرمان حصاة كبيرة بعض الشيء وألحقت الضرر بسيارة والده الميرسيدس. أنزل به والده حينذاك عقاباً لا يُنسى. من آخر الزقاق وحتى شارع رومونج، كانت صرخاته تدوّي مردّدة سياط الحزام. بعد هذه الواقعة صنعنا عصياً طويلة تعلوها خطّافات من سلك حديديّ، مُثبّتة بكاوتشوك إطارات السيارات القديمة. كان طول العصي يزيد عن الستة أمتار ما كان يسمح لنا بالوصول إلى ثمرات المانغا الأكثر علواً.

على امتداد الطريق الإسفلتي، كان بعض سائقي العربات يشتموننا بسبب فعلتنا الزريّة. حفاة الأقدام، عراة الصدور، مع عصيّنا التي تكشط الأرض وقمصاننا

التي نستخدمها كخُرَجٍ نعبئ فيها حصيلتنا من المانغا، كنا نبدو كالمجانين.

مرّت أمامنا امرأة أنيقة، ربما كانت إحدى صديقات ذوي أرمان، عندما تعرّفت إلى أرمان وبطنه مكشوف على الهواء وقدماه مليئتان بالغبار، رفعت عينيها نحو السماء ورسمت إشارة الصليب قائلة: «يا إلهي! ارتدِ ملابسك بسرعة يا صغيري. أنت تُشبه زعران الشوارع الصغار». كان الكبار أحياناً مُضحكين جداً.

أثناء عودتنا إلى الزقاق، جذبت انتباهنا ثمار مانغا كبيرة كانت تتدلّى من حديقة آل ڤون غوتزن. تمكنّا بواسطة عصيّنا من اقتلاع بعضها من الشارع، لكن الأشهى من بينها كانت بعيدة المنال. كان يتوجّب تسلّق الجدار الصغير، لكننا خفنا من الوقوع في قبضة السيد ڤون غوتزن، وهو ألماني عجوز مجنون بعض الشيء، لديه مجموعة من الأقواس والنشّابات، سُجن أول مرة لأنه تبوّل فوق وجبة البستاني الذي يعمل لديه لأن ذاك الأخير تجرأ وطلب منه زيادة على مرتبه، ومرة أخرى لقيامه بسجن الصبي الذي يعمل لديه في الثلّاجة لأنه أحرق له طبق الموز المقلي. زوجته الأكثر تحفّظاً وعنصرية، كانت تلعب كل يوم الغولف في ملعب فندق الميريديان وكانت رئيسة نادي الفروسية في بوجومبورا حيث كانت تقضي معظم وقتها بالعناية بحصانها، خيل أصيلة لونها أسود لامع. كان بيتهما هو الأجمل في الزقاق والوحيد الذي لديه طابق ثانٍ وبركة سباحة، وكنّا نفضّل تفاديه.

إلى الأمام، وراء منزل التوأمين يقع بيت السيدة إيكونوموبولُس، وهي عجوز يونانية لم يكن لديها أولاد، إنما عشرة كلاب تيكيل ألمانية. دخلنا إلى ملكيتها عبر السياج بفضل حفرة صنعها كلاب الحيّ من أجل الزيارات الليلية حين تكون إناث كلابها مهتاجة. داخل الحديقة المُظلّلة، كان هناك ليس شجرة مانغا هائلة الحجم فقط إنما أشجار كرمة مُثقلة بعناقيد العنب، ربما الوحيدة في البلاد، وكذلك الكثير من الأزهار.

بينما كنا أرمان وأنا نسرق عناقيد العنب والتوأمان يقتلعان ثمار المانغا المكتنزة، وصل خادم المرأة اليونانية ثائراً يرفع مكنسته فوق رأسه. فتح باب حظيرة الكلاب الألمانية التي انطلقت تجري خلفنا. فررنا بأسرع ما استطعنا ونحن نتسلل من جديد تحت السياج. من جرّاء السرعة تمزّق سروال أرمان القصير عندما علق في السياج الشائك وأظهر الشقّ مؤخّرته إلى الهواء، أضحكنا ذلك لربع ساعة متواصلة. بعد ذلك، وقفنا أمام بوّابة السيدة إيكونوموبولُس. كنا نعرف أنها تعود من مركز المدينة كل يوم في الساعة نفسها وسوف تكون سعيدة برؤيتنا.

عندما وصلت بسيارتها الحمراء الصغيرة، سارعنا نحوها كي نبيعها ثمار المانغا أو بالأحرى ثمارها... اشترت منّا بعضاً من ثمار المانغا قبل أن يصل موظّفها ويفتح بوّابة البيت لنفرّ هاربين بورقة الألف فرنك في جيبنا. رمى مكنسته في الهواء ساخطاً يشتمنا بالكيروندية، لكنّنا كنّا قد صرنا بعيداً جداً.

مع ما تبقّى لنا من محصول المانغا، عدنا إلى سيارة الكومبي كي نأكل المانغا حدّ التخمة، حفلة قصف وعربدة حقيقية. كان عصير المانغا يسيل على ذقوننا ووجناتنا وأذرعنا وثيابنا وأقدامنا، نمصّ البذور الزلقة، نجزّها، نلعقها، نكشط ظاهر القشرة، نجرّفها، ننظّفها، ويبقى اللبّ الليفي بين أسناننا.

بعد أن ارتوينا حتى الثمالة من كل هذه العصارة واللبّ، غصنا نحن الخمسة في مقاعد الڤولكس المغبرّة القديمة، قَلَبنا رؤوسنا نحو الخلف وقد انقطعت أنفاسنا وامتلأت بطوننا. أياد دبقة، أظافر سود، ضحكات حاضرة وقلوب امتلأت بالحلاوة. كانت هذه استراحة قاطفي المانغا.

– هل يعنيك الذهاب إلى نهر موها؟ صاح أرمان.

– لا، أفضّل الذهاب للصيد في نادي السباحة! قال جينو.

– لماذا لا نلعب شوط كرة قدم في ملعب الثانوية العالمية؟ ردّ التوأمان.

– أو لماذا لا نذهب إلى مقهى «السويسري الصغير» لنلعب الأتاري؟ قلت.

– دعك من ذلك، إنه حقير! يجعلنا ندفع خمسمائة قرش للعبة ماك مان!

انتهى بنا المطاف إلى النزول في نهر موها. مشينا فيه حتى وصلنا إلى نادي السباحة. كانت رحلة حقيقية. في إحدى اللحظات كاد الشلّال أن يحمل معه التوأمين، ذلك لأن التيار يصبح قوياً جداً في موسم الأمطار. أمام نادي السباحة صنعنا سنّارات صيد مُرتجلة من سيقان خيزران الماء، واشترينا دوداً وطحيناً لصنع الطعم للسمك. كان البائع عُمانياً من الحيّ الآسيوي يتمشّى دائماً على الضفّة، حيث كان الناس يدعونه نينجا لأنه يمضي وقته بالقيام بحركات الكاراتيه في الهواء ويصيح كأنه يقاتل آلاف الأعداء غير المرئيين. كان الكبار يقولون عنه مجنوناً بحركاته البهلوانية. نحن الأولاد كنّا نحبّه كثيراً ونرى أن ما يفعله أكثر طبيعية بكثير من الأشياء التي يقوم بها الكبار، كتنظيم عروض عسكرية ورشّ مزيل الرائحة تحت الإبطين وارتداء ربطة عنق عندما يكون الطقس حارّاً وشرب البيرة طوال الليل وهم يجلسون في الظلام أو يسمعون أغاني الرومبا الزائيرية التي لا تنتهي.

جلسنا على الضفّة أمام مطعم النادي على مسافة بضعة أمتار من مجموعة من أفراس النهر التي كانت في قمّة جماحها الجنسي. كان الهواء يعصف بشدّة والأمواج ترغي فوق البحيرة والزبد عند أسفل الصخور يشبه رغوة الصابون. شرع جينو بالتبوّل في المياه. كان يريد إطلاق مسابقة أبعد نوفرة (التبول الأبعد مدى)، ولكن لا أحد كان يرغب بالمشاركة. بالكاد كان التوأمان قد نسيا قصّة ختانهما. كان أرمان من النوع المحتشم فيما يتعلّق بهذا الجزء من الجسم، وأنا حين رأيت أن الآخرين لا يحذون حذوه قلّت حماستي.

– شلّة من الدجاجات المبلّلة، سرب سمك بَتول، نتف لحم عنزة فاسدة!

– إذا كنّا نُضجرك جينو ليس عليك سوى أن تتوفر بولك حتى زائير، وسوف يُرسل لك موبوتو الأمن العسكري ليقطع خصيتيك.

– سوف أقطع خصيتَيْ فرانسيس لو رأيته مجدّداً يتسكّع في منطقتنا، قال جينو، وهو يحاول أن يقضي حاجته إلى أبعد ما يمكن.

– ها قد بدأنا من جديد! مضى زمن طويل لم تتحدّث عنه. سوف تدفعنا إلى الظنّ بأنك مُغرم به.

– كينانيرا عندنا! سوف أهتكه هنا، ابن العاهرة هذا! صاح وهو يفتح ذراعيه على اتساعهما أمام الريح.

– كفّ عن التبجّح، لن تفعل له شيئاً. لست سوى جعجاع كبير!

كان فرانسيس أكبر منّا سنّاً، عمره ما بين الثلاثة عشر والأربعة عشر عاماً. كان ألدّ أعداء جينو والشلّة، إلّا أنه كان أقوى منّا نحن الخمسة مجتمعين. ومع أنه ليس ضخم البنية، على العكس، كان يشبه سلك الحديد وهو نحيل كالحطب اليابس، لكنه كان يبدو لا يُقهر. كانت ذراعاه وساقاه مشطّبة بالحروق والندوب مثل عريشة. في بعض المواضع كان يبدو وكأن هناك صفائح حديدية تحت جلده تجعله لا يتأثّر بالألم أبداً. ذات يوم أمسك بنا أنا وأرمان ليسطو على علكة جوجو التي كنّا قد اشتريناها توّاً من الكشك. سدّدت ركلة قوية على قصبة ساقه كي أتخلّص منه دون أن يصدر عنه أي تذمر وهذا ما أذهلني.

كان فرانسيس يعيش مع عمّ عجوز أمام جسر موها على بُعد شارع ونصف من زقاقنا، في بيت يثير الرعب مغطّى بالأشنيات، والنهر يجري عند أسفل حديقته بنّياً دبقاً مثل أفعى الأصلة. كنّا نختبئ في قناة مجرى الماء عندما نمر أمام بيته لأنه كان يكرهنا ويقول عنّا: أولاد أغنياء ينادون آباءهم: mama, papa، ويأكلون

العصرونية في الساعة الرابعة. كان ذلك يثير جنون جينو الذي كان يحلم بأن يشتهر كأكبر داهية في بوجومبورا. كان فرانسيس يقول عن نفسه إنه فرد عصابة عتيق، صبي شوارع عرف شخصياً عصابات نغاغارا وبويزا، أولئك الذين كانوا يُدعون «لا هزيمة» و «لا إخفاق» وكانت الصحيفة تتحدّث عنهم منذ بعض الوقت لأنهم يبتزّون المواطنين الشرفاء.

لم أكن أجرؤ على التصريح أمام الآخرين، لكنني كنت أخاف فرانسيس. كما لم أكن أحبّ كثيراً أن يلحّ جينو على الشجار وإقامة معقل لحماية الزقاق، لأنني كنت أرى بوضوح الرفقاء وهم يزدادون حماسة من جرّاء ما كان يرويه. أنا أيضاً كنت أتحمّس قليلاً، لكنني كنت أفضّل صنع قوارب جذوع الموز كي ننزلها في نهر موها، أو مراقبة الطيور بالمنظار في حقول الذرة وراء المدرسة الوطنية، أو حتى عندما نبني أكواخاً في أشجار تين الحيّ ونعيش الكثير من الأحداث المفاجئة من حياة الهنود الحمر والغرب الأميركي. كنا نعرف كل أركان الزقاق ونريد البقاء فيه الحياة بأكملها، نحن الخمسة معاً.

مهما حاولت التركيز، لم أعد أذكر اللحظة التي بدأنا فيها التفكير بشكل مختلف، مع الأخذ في الاعتبار أنه منذ تلك اللحظة كان هناك نحن من جهة والأعداء في الجهة الأخرى، مثل فرانسيس. مهما حاولت أن أقلّب ذكرياتي في شتّى الاتجاهات لن أتمكّن أبداً من أن أتذكّر بوضوح اللحظة التي قرّرنا فيها عدم الاكتفاء بمشاركة القليل الذي لدينا، توقّفنا عن الثقة، بدأنا نرى الآخر مصدراً للخطر، ثم خلقنا هذه الحدود الوهمية مع العالم الخارجي عندما جعلنا من حيّنا قلعة ومن زقاقنا أرضاً مسوّرة، مازلت أتساءل حتى اليوم متى بدأنا نخاف، رفقائي وأنا.

11

لا شيء يُضاهي حلاوة تلك اللحظة التي كانت الشمس تنحدر فيها وراء قمم الجبال، والغسق يجلب معه طراوة المساء وأنواراً حارّة تتحوّل في كل لحظة. في تلك الساعة، كان الإيقاع يتغيّر، والناس يعودون بطمأنينة إلى بيوتهم، يتسلّم حرّاس الليل عملهم، ويجلس الجيران أمام بواباتهم. إنها ساعة الصمت قبل وصول الضفادع وزيزان الليل، وعلى العموم، كان هذا هو التوقيت المناسب للعب شوط مباراة كرة قدم، أو للجلوس مع صديق فوق جدار مجرى المياه، أو لسماع المذياع والأذن لصق الجهاز، أو لزيارة أحد الجيران.

كانت تنتهي أوقات بعد الظهيرة المضجرة أخيراً مطلقة أنفاسها الأخيرة على مهل. ضمن هذا الفاصل من النهار حين تتعب اللحظات، كنت ألتقي جينو أمام مرأب منزلهم تحت شجرة الياسمين الهندي، نجلس فوق حصير الحارس الليلي، ونسمع أخبار الجبهة من المذياع الصغير المشوّش حيث كان جينو يُصلح الهوائي لتخفيف الخشخشة ويترجم لي كل جملة واضعاً فيها كل قلبه.

استؤنفت الحرب في رواندا منذ بضعة أيام وحسم باسيفيك أمره، أخذ متاع الجندي وترك غيتاره وراءه. كان جينو يبشّر هنا وهناك أن الجبهة الرواندية الوطنية في طريقها إلينا لتعيد حريّتنا. كان يشتم ويلعن لأننا جالسون لا نفعل شيئاً، بالنسبة

إليه كنّا جُبناء رعديدين وعلينا الذهاب للقتال. كانت الإشاعات تقول إن خلاسيين مثلنا رحلوا للقتال وجينو يؤكّد: حتى أن بعضهم kadogos[17]، جنود صغار، أعمارهم ما بين الاثنتي عشرة والثلاث عشرة سنة.

جينو صديقي الذي كان يخاف الرُتيلاوات التي نجمعها من حديقته وينبطح على الأرض فور سماعه عاصفة تقترب من البعيد، جينو هذا بالذات، كان يريد أن يعيش حرب العصابات ومعه بندقية كلاشنيكوف أطول منه في ضباب جبال ڤيرونغا. رسم على ساعده وشماً بواسطة غصن، أحرف FPR حاكّاً جلده حتى أدماه. اندمل جرحه بشكل سيّئ تاركاً ثلاثة أحرف منتفخة فوق الجلد. كان جينو نصف رواندي مثلي، لكنني كنت أحسده لأنه يتحدّث اللغة الكينيارواندية بشكل ممتاز ويعرف تماماً من يكون، في حين كان والدي يتضايق من رؤية صبي في الثانية عشرة من عمره يتدخّل في أحاديث الكبار. ولكن بالنسبة إلى جينو، لم تكن السياسة سرّاً. كان والده أستاذاً جامعياً ويسأله دائماً رأيه في الأوضاع وينصحه بقراءة المقال الفلاني في مجلّة Jeune Afrique، وآخر في جريدة Le Soir[18]. بسرعة كبيرة أصبح جينو يفهم دائماً ما يقوله الكبار. كانت هذه ميزته.

كان جينو هو الولد الوحيد الذي أعرفه يشرب القهوة السوداء على الإفطار دون سكّر، ويستمع إلى الأخبار في محطّة فرنسا العالمية بالحماسة نفسها التي أتابع فيها مباراة لنادي Vital´o[19]. عندما نكون معاً كان يصرّ على أن يكون لديّ ما يدعوه «هويّة». برأيه ثمّة طريقة للوجود، للإحساس، للتفكير، يجدر بي أن أنالها، وكان يستخدم الكلمات نفسها التي تردّدها أمي وباسيفيك. إننا لسنا هنا سوى لاجئين، وتجدر بنا العودة إلى بلادنا، إلى رواندا.

بلادي؟ إنها هنا. صحيح أنني ابن امرأة رواندية، لكن بوروندي هي واقع حياتي، المدرسة الفرنسية، كينانيرا، الزقاق، الباقي لم يكن له وجود. مع ذلك، وبسبب

موت ألفونس ورحيل باسيفيك، كان يحدث لي أن أفكّر أنني معنيّ أيضاً بتلك الأحداث، لكنني كنت أخاف، أخاف من ردّة فعل والدي لو سمعني أتحدّث عن تلك القصص، أخاف لأنني ما كنت أريد أن أُدخل البلبلة إلى روتين حياتي، أخاف لأن الأمر يتعلّق بالحرب، وداخل ذهني فإن الحرب لا يمكن أن تكون سوى تعاسة وحزن.

في ذلك المساء، كنّا نُصغي إلى المذياع وهبط الليل على حين غرّة. فانكفأنا إلى داخل البيت الذي كانت جدرانه معرضاً حقيقياً لصور الحيوانات، إذ كان والده مولعاً بالتصوير. في نهايات الأسبوع كان يرحل: بقبّعة وقميص وشورت عريض وصندل خفيف وجوارب وآلة تصوير. رحلة سفاري تصوير في حديقة روڤوبو الطبيعية. وحين يعود يقوم بإظهار الصور في غرفة الحمّام التي سدّ كل شقوقها. كانت تنتشر في البيت رائحة عيادة الأسنان الكريهة، انبعاثات المواد الكيماوية المستعملة في مختبر التصوير تمتزج بمياه المرحاض التي كان والده يرشّ نفسه بها بغزارة. كان والده كالطيف، إذ لم نكن نراه قط، لكننا كنا نتكهّن وجوده بسبب رائحة الجِراء المغسولة بماء الجاڤيل التي كانت تعلق على جلده، والضجيج الذي كانت تُحدثه آلته الكاتبة التي ينقر عليها دروسه وكتبه السياسية طول حياته. كان والد جينو يحب النظام والنظافة، وعندما يقوم بشيء ما كفتح الستائر مثلاً أو ريّ النباتات، كان يقول: «ها قد أنجزت العمل». وعلى امتداد نهاره الأحمق كان يردّد داخل رأسه ما أنجزه مُدمدماً: «أنجزت عملاً جيّداً!». كان يمشّط شعر ساعديه بالفرشاة باتجاه مُحدّد، ولديه صلعة راهب يخفيها بجلب شعره الجانبيّ إلى فوق الدائرة الجرداء. في الأيام التي كان يضع فيها ربطة العنق يجلب شعره إلى الجانب الأيمن، وأيام ربطة الفراشة يأخذه إلى الجانب الأيسر. وكان يسرّح بدقّة هذه القبعة من الشعر بشكل يترك معه خطاً صغيراً واضحاً جداً للعيان، مثل أخدود لا عيب فيه. في الحيّ كان الكل يُطلق عليه لقب «كوداك» ليس بسبب شغفه بالتصوير إنما لأن لديه

أطناناً من القشرة داخل شعره الأشيب.

عندما نكون في بيته يصبح جينو مضجراً، لا يعود مرحاً يبصق ويتجشّأ ويحشر رأسي بين إليتيه كي يُطلق الريح. كان يلحق بي مثل كلب صغير يعشق صاحبه ليتأكّد من أنني أحسنت فتح مرشّ المياه في الحمّام، أو إذا ما كنت قد تركت بضع قطرات على جلاس المرحاض، وإذا كنت قد أعدت التحف في الصالة إلى مكانها المناسب، كان هوس والده ينعكس عليه ويجعل المنزل بارداً وغير مضياف.

كانت تلك الليلة استوائية، غير أننا شعرنا أن رياحاً قطبية كانت تجول بين الغرف وجينو نفسه أدرك ذلك. بعد دقائق قليلة، نظر أحدنا إلى الآخر وشعرنا أننا لا هو ولا أنا كنّا مرتاحين في هذه التخشيبة. ودون أن ننبس بأي حرف، غادرنا بسرعة، تركنا وراءنا ضوء مصابيح النيون الشاحب والفراشات الليلية تنقرها السحالي البرص وابتعدنا عن تكتكة آلة والده ال. Olivetti المُغيظة لنستعيد هدوء الليل وسكينته.

كان الزقاق بطول مائتي متر ونهايته مسدودة، أرضه ترابية وفيها الكثير من الحصى أيضاً، تشكّل في وسطه شجرات الأقوكا وشجيرات الغروڤيلا منصفاً طبيعياً للطريق، في حين كانت الثغرات بين أسيجة نبتة الغروڤيلا تسمح برؤية منازل أنيقة وسط حدائق مزروعة بالأشجار المثمرة والنخيل. أما شتلات نبتة الليمونية الشريطية التي تحفّ بأقنية المياه فكان يفوح منها عطر خفيف يُبعد البعوض.

عندما كنا نتسكّع معاً في الزقاق، كنا نحب أن نمشي متشابكي الأيدي مثل صديقين ونحن نتبادل سرد حكاياتنا. كان جينو هو الوحيد من الشلّة الذي أجرؤ على أن أسرد له أسراري رغم تحفظي. ومع انفصال والديّ، بدأت أطرح على نفسي أسئلة جديدة.

– ألا تشتاق إلى أمك؟

– سأذهب قريباً لأراها. إنها في كيغالي.

– آخر مرّة قلت لي إنها في أوروبا؟

– نعم وقد عادت.

– وأهلك، هل هما منفصلان؟

– ليس فعلياً، هما لا يعيشان معاً فقط.

– ما عادا مُتحابّين؟

– بلى. لماذا تسألني عن ذلك؟

– لأنهما ما عادا يعيشان معاً، أليس هذا ما يحدث عندما لا يعود يحبّ أحدهما الآخر؟

– الأمر هكذا بالنسبة إليك كابي وليس بالنسبة إلي...

كنّا نقترب على مهل من ضوء المصباح الشاحب المتدلّي من قضبان الكشك. وأمام حاوية نقل البضائع التي تحوّلت إلى بقالية، أخرجتُ ما تبقّى من الألف فرنك التي أعطتنا إياها السيدة إيكونوموبولُس، اشترينا رزمة بسكويت «Tip Top» وعلكة «JoJo». وبما أنه بقي لدينا كمية لا بأس بها من المال، اقترح جينو أن يشتري لي زجاجة بيرة من الملهى القائم في أحد أركان الزقاق تحت شجرة فلامبوينت هزيلة.

كان الملهى أكبر مؤسسة في بوروندي، ملتقى الشعب، مذياع الرصيف، نبض الأمة. في كل شارع من كل حيّ، هناك تلك الأكواخ الصغيرة غير المضاءة حيث تجد الكثيرين يأتون لشرب قدح بيرة ساخنة تحت جنح الظلام، يجلسون بشكل غير مريح فوق صندوق بيرة أو على كرسي صغير دون ظهر، على بعد سنتمترات من

الأرض. كان الملهى يقدّم لروّاده ترف التخفي والمشاركة في الأحاديث، أو عدم المشاركة من دون أن يلمحهم أحد. وفي هذا الوطن الصغير حيث الناس كلهم يعرفون بعضهم بعضاً، وحده الملهى كان يتيح المجال لإطلاق حريّة الكلام، ويكون المرء متصالحاً مع ذاته. الحرية ذاتها وكأنه مع نفسه. بالنسبة إلى شعب لم ينتخب قط فإن إعطاء الصوت كان له أهمية كبرى، سواء كان المرء استعمارياً أبيض أو خادماً بسيطاً، وكانت القلوب داخل الملهى والرؤوس والبطون والأعضاء التناسلية تعبّر عن نفسها دون تراتبية.

طلب جينو زجاجتي بيرة بريموس. كان يحب المجيء إلى هنا لسماع أحاديث السياسة. كم من الوقت جلسنا هكذا تحت مظلّة الصفيح المتموّجة للكوخ الصغير؟ لا أحد كان يعرف وقلّما كان يهمّ ذلك. الكلام فقط كان يُلقى جُزافاً ويطفو في المكان الغارق في العتمة، ويعبر من هنا وهناك مثل الشهب. ما بين عبارة وأخرى كانت الوقفات تدوم دهراً، ثم ما يلبث أن يطفو صوت جديد يبرز من العدم ليعود وينطفئ وينصهر في الصمت.

– أقول إن الديموقراطية شيء جيد وسوف يقرر الشعب أخيراً مصيره. يجب أن نفرح بهذه الانتخابات الرئاسية. سوف تجلب لنا السلام والتقدّم.

– دعني أخالفك الرأي كلّياً أيها المواطن العزيز. الديموقراطية من ابتكار البيض وهدفها الوحيد تفريقنا. ارتكبنا خطأ حين تخلّينا عن الحزب الواحد. لقد تطلّب الأمر قروناً من الزمن والكثير من الصراعات حتى وصل البيض إلى المرحلة التي وصلوا إليها. يطلبون منّا اليوم القيام بالشيء نفسه على مدى بضعة أشهر. أخشى أن حُكّامنا يلعبون دور الحاذق المتدرّب مع أنني أتصوّر أنهم لا يسيطرون كثيراً، لا على الظروف ولا على الملابسات.

– من لا يستطيع تسلّق الشجرة فليبقَ على الأرض.

– ما زلت أشعر بالعطش...

– ثقافياً، لدينا عبادة الملك. زعيم، وطن، أمة! هذه وحدة شعارنا.

– ليس بوسع الكلب أن يصير بقرة.

– لا شيء يروي عطشي اللعين...

– إنها وحدة للتشدّق. علينا أن نتطوّر إلى الإيمان بالشعب، الضامن الحقيقي الوحيد للسلام الدائم.

– دون تحضيرات مسبقة للعدالة أخشى أن يكون السلام، الإطار الضروري للديموقراطية مستحيلاً بكل بساطة! الآلاف من إخوتنا ذُبحوا في عام 1972 ولم تُرفع دعوى واحدة. إذا لم يتم فعل شيء فسوف ينتهي الأمر بالأبناء إلى الثأر لآبائهم.

– ترّهات! لا تُحرّكوا الماضي، المستقبل يسير إلى الأمام. الموت للعرقية، الموت للقبلية، الموت للمناطقية، الموت للاقتتال!

– والكحولية!

– أنا عطشان، أنا عطشان، أنا عطشان، أنا عطشان، أنا عطشان...

– يا إخوتي، ليرافقنا الرب في طريقنا كما رافق ابنه على طريق الجلجلة...

– فهمت الآن، عرفت. بسببها أنا عطشان. أحتاج إلى زجاجة بيرة أخرى.

– نجح البيض في مُخطّطهم الماكياڤيلي[20]. نقلوا إلينا آلههم، لغتهم، ديمقراطيتهم. اليوم نذهب لنتعالج عندهم ونرسل أولادنا ليدرسوا في مدارسهم. الزنوج كلهم مجانين وحمقى...

– سرقت مني كلّ شيء تلك القحبة، لكنها لن تخطف مني عطشي.

– نحن نعيش فوق مكان المأساة. لإفريقيا شكل المسدّس. لا شيء نفعله حيال هذه الحقيقة. لنطلق الرصاصة، على أي مكان، لنطلق الرصاص فحسب!

– المستقبل يأتي من الماضي كما تأتي البيضة من الدجاجة.

– بيرة! – بيرة! – بيرة! – بيرة! – بيرة! – بيرة! – بيرة! – بيرة! – بيرة! – بيرة! – بيرة! – بيرة! – بيرة!

بقينا هناك لبعض الوقت نرتشف بصمت جعتنا الساخنة ثم همست بأذن جينو: إلى اللقاء... مع تأثير الكحول المتغلغل في دمي، لم أكن واثقاً من أن ذاك الطيف الذي كان إلى جانبي هو جينو. كان يجدر بي أن أعود إلى البيت سالكاً الزقاق الذي تلفّه الظلمة، وكنت أترنّح على نحوٍ خفيف. كانت تصدر عن الأغصان أصوات نعيق البوم في حين كانت السماء من فوق رأسي خالية، وتصل إلى مسامعي الأحاديث الليلية. السكارى في الملهى يثرثرون، يصغون، يرفعون الغطاء عن البيرة وعن أفكارهم. إنها أرواح تتفاعل فيما بينها، أصوات دون أفواه، خفقات قلوب مضطربة. في ساعات الليل الشاحبة تلك، كان يختفي البشر ولا يبقى سوى الوطن، الوطن الذي يتحدّث مع ذاته.

12

فروديبو، أوبرونا، هذان هما اسما الحزبين السياسيين الكبيرين اللذين كانا يتزاحمان في الانتخابات الرئاسية في الأول من حزيران في عام 1993 بعد ثلاثين سنة على حكم أوبرونا دون مشاركة. لم نعد نسمع إلّا هذين الاسمين على امتداد النهار. في المذياع، في التلفاز، في أفواه الكبار. وبما أن أبي لم يكن يريد أن نُقحم أنفسنا في السياسة، كنت أصغي في مكان آخر عندما كانوا يتحدّثون في السياسة.

في طول البلاد وعرضها اتخذت الحملة الانتخابية طابعاً احتفالياً. كان أنصار أوبرونا يرتدون القمصان مع القبعات الحمر والبيض وعندما يلتقون كانوا يرفعون أصابعهم الثلاث الوسطى إلى الأعلى. من جهتهم، اختار داعمو فروديبو اللونين الأخضر والأبيض، وكانت إشارة تحالفهم القبضة المرفوعة في كل مكان، في الساحات العامة، في الحدائق، في الملاعب، كانوا يغنّون ويرقصون ويضحكون وينظّمون المهرجانات الخيرية التي تعجّ بالناس والصخب. حتى بروتيه الطبّاخ صاحب الهيئة الرصينة دائماً بسحنته الشبيهة بكلب عوقب بالضرب، تغيّر ولم يعد على لسانه سوى كلمة الديموقراطية. كنت أحياناً أباغته في المطبخ وهو يهزّ ردفيه، هو المصاب بالملاريا، كان يغنّي بصوت مخشخش: «فروديبو كوميرا! فروديبو كوميرا» أي «فروديبو، هذا حسن!» يا لها من متعة أن ترى فرح الناس الناتج من

السياسة! كان شبيهاً بفرح مباريات كرة القدم التي تجري الأحد صباحاً. كما لم أكن أفهم تماماً لماذا كان أبي يرفض أن يتحدّث الأولاد عن كل هذه البهجة العارمة، عن رياح التجديد التي كانت تكشف عن باطن الناس وتملأ قلوبهم بالأمل.

عشيّة الانتخابات الرئاسية، كنت جالساً على درجات سلّم المطبخ، في الفناء الخلفي للبيت، مشغولاً بتفقيس براغيث الكلب واستخراج الديدان من تحت جلده. كان بروتيه راكعاً يغسل الملاءات أمام حوض غسيل الأواني المقشور وهو يدندن ترتيلة دينية. بعد أن ملأ حوضاً كبيراً بالماء وسكب محتوى علبة مسحوق الغسيل OMO، غطّس كوم البياضات في السائل الأزرق. كان دوناتيان جالساً على كرسي أمامه يلمّع حذاءه، يرتدي سترة رمادية قاتمة قصيرة الأكمام وقد غرس مشطاً بلاستيكياً في شعره.

في أثناء ذلك كان إينوسان يأخذ حمّامه في البعيد قليلاً عند طرف الحديقة. كان يبرز رأسه وقدميه من فوق وأسفل الصفيح الصدئ المستخدم كباب لزاوية الاستحمام. وكي يناكد بروتيه، ابتكر أغنية تسخر من فروديبو وراح يغنّيها بأعلى صوته: «فروديبو في الوحل، أوبرونا سيفوز». رمقه بروتيه بنظرات مشوبة بالحذر كي يتأكّد من أنه لا يسمعه وغمغم متذمراً: يمكنه الاستمرار بحركاته الصبيانية قدر ما يشاء، لن يفوزوا هذه المرّة، لا بل أقول لك يا دوناتيان: أعمتهم السلطة على مدى ثلاثين عاماً، وسوف تكون هزيمتهم أشدّ ألماً.

– لا تكن شديد الاعتداد بنفسك يا صاحبي، هذه خطيئة. إينوسان يافع ومتكبّر، ولكن أنت، عليك أن تكون مثالاً للحكمة. لا تشغل نفسك بهذه الاستفزازات السخيفة.

– معك حقّ يا دوناتيان. ولكنني أتحرّق لرؤية وجهه عندما سيعلم بفوزنا.

خرج إينوسان بعد انتهاء حمامه عاري الصدر وتقدّم نحونا بمشية سنّور. كانت

قطرات الماء في شعره الجعد تلمع تحت الشمس وكأنها إكليل أبيض. وقف أمام بروتيه الذي خفض رأسه وشرع يدعك الغسيل بنشاط أكثر، فمدّ إينوسان يده إلى داخل جيبه وأخرج منه أحد عيدان أسنانه الكريهة وألقى به داخل فمه. وكي يثير الروع في نفوسنا، شدّ عضلاته واتخذ وضعية وهو يحدّق إلى عنق بروتيه باحتقار.

– هيه، أنت أيها الخادم!

توقّف بروتيه عن فرك الغسيل تماماً، وانتصب على طول قامته غارساً نظراته في عينيّ إينوسان بموقف تحدٍ بارد، فتوقّف دوناتيان عن تلميع حذائه وأنا تركت قائمة الكلب. دُهش إينوسان من رؤية بروتيه الهزيل يقف في وجهه، واضطرب من كل هذه الثقة بالنفس. في النهاية، هشّ ابتسامة صغيرة ساخرة، منزعجاً بعض الشيء، ثم بصق عود أسنانه على الأرض وابتعد رافعاً إشارة أوبرونا فوق رأسه، الأصابع الثلاث مرفوعة. راقبه بروتيه وهو يبتعد. وعندما اختفى إينوسان وراء البوابة عاد وجلس مكانه أمام حوض المياه وشرع يدندن: «فروديبو كوميرا...»

13

كان صباحاً مثل أي صباح آخر. الديك يصيح، الكلب يحكّ وراء أذنه، رائحة القهوة تعبق في المنزل، الببغاء يقلّد صوت أبي، صوت المكنسة وهي تكشط أرض الفناء في الجانب، صوت المذياع يلعلع عند الجيران، السحلية الزاهية الألوان تأخذ حمّامها الشمسي، سرب النمل يحمل حبّات السكّر التي أسقطتها آنّا تحت الطاولة. كان صباحاً مثل أي صباح آخر.

غير أنه كان يوماً تاريخياً. في كل مكان من البلاد كان الناس يستعدّون للانتخاب للمرّة الأولى في حياتهم، وقد بدأوا يتوافدون منذ تباشير الصباح الأولى إلى مراكز الاقتراع الأقرب إليهم. موكب لا أول له ولا آخر من نساء بعباءاتهن الملوّنة ورجال تأنّقوا بعناية يمشون على امتداد الطريق الطويل، حيث يتوالى وصول حافلات صغيرة تغصّ بالناخبين المبتهجين. على أرض ملعب كرة القدم بالقرب من منزلنا، كان الناس يتوافدون من كل حدب وصوب حيث وُضعت طاولات وغرف الانتخاب المنعزلة فوق العشب. كنت أتفرج عبر السياج على الرتل الطويل للناخبين الهادئين المنضبطين المصطبرين تحت الشمس. داخل الحشد، كان البعض غير قادر على كبت فرحه. خرجت إحدى العجائز ترتدي عباءة حمراء وفوقها تي شيرت عليها صورة البابا يوحنا بولس الثاني من غرفة الاقتراع ترقص وتُغنّي: «ديموقراطية!

ديموقراطية!» اقترب منها بعض الشبان، حملوها وهم يطلقون صيحات التهليل نحو السماء. في زوايا الملعب الأربع كان يمكن رؤية رجال بيض وآسيويين يلبسون الصدّارات المتعدّدة الألوان كتب على ظهرها: «مراقبون دوليون». كان البوروندیون على دراية تامة بأهمية اللحظة، وبالعهد الجديد الذي سينفتح أمامهم؛ إذ كانت هذه الانتخابات ستضع حدّاً للحزب الواحد وللانقلابات السياسية. أخيراً، أصبح كل فرد حرّاً باختيار ممثّله. في آخر النهار، بعد أن رحل آخر الناخبين، كانت أرض الملعب شبيهة بحقل معركة واسع. العشب مُداس، الأوراق متناثرة على الأرض. تسلّلت أنا وأختي آنّا تحت السياج وتسلّقنا حتى غرفة الناخبين. جمعنا أوراق الاقتراع المنسيّة، وهي تعود ل. فروديبو وأوبرونا والحزب الرواندي الشعبوي لأنني كنت أريد الاحتفاظ بذكرى من هذا اليوم المشهود.

كان اليوم التالي غريباً. لا شيء يتحرّك. بانتظار النتائج، كانت المدينة تعيش في حالة من القلق. في البيت كان الهاتف يرنّ دون توقّف. رفض والدي أن أذهب إلى الزقاق لرؤية الأصدقاء، حيث كانت حديقتنا خالية واختفى الحارس. كان يعبر الشارع عدد قليل جداً من السيارات، تناقض محزن مقارنة بمرح أمس. أثناء قيلولة والدي هربت عبر الباب الخلفي، كنت أريد التحدّث إلى أرمان، إذ لا شك أن لديه الأخبار عن طريق والده. قرعت البوابة وطلبت من الموظّف أن يناديه. عندما وصل قال إن والده يدور في المنزل مشغول البال وهو يدخّن السيجار الصغير ويضع السكّر في الشاي أكثر من المعتاد بكثير. الهاتف لم يكفّ عن الرنين في بيته أيضاً. نصحني بالعودة إلى البيت وعدم التسكّع في الشارع، لا نعرف ماذا يمكن أن يحدث. إذ كانت تسري إشاعات مُقلقة.

قبل أن يحلّ الليل بقليل كنا نجلس نحن الثلاثة في الصالة، أبي وآنّا وأنا عندما اتصل أحدهم وطلب منه تشغيل المذياع. كان الجوّ مُعتماً، آنّا تقضم أظفارها

وأبي يبحث عن المحطّة. أفلح أخيراً في العثور على التردّد المطلوب في اللحظة التي كانت فيها مذيعة الراديو والتلفزيون الوطني تعلن عن اقتراب موعد إعلان النتائج. انبعث صوت فرقة قديمة تلاه لحن أبواق ترافقه جوقة تغنّي بصوت يصمّ الآذان: «بوروندي بواكو، بوروندي بوهير... « بعد النشيد الوطني، استهلّ الكلام وزير الداخلية وأعلن فوز فروديبو. بقي والدي هادئ الأعصاب. فقط أشعل سيجارة.

في الحيّ، ما من صيحة، ما من بوق سيارة، ما من نأمة. لاح لي أنني سمعت في البعيد صيحات، هناك في الأعلى عند التلال. هل كان ذلك من نسج خيالي؟ والدي المهووس بإبعادنا عن السياسة التجأ إلى غرفته لإجراء بعض الاتصالات الهاتفية. سمعت عبر الباب عبارات لم أفهمها: «هذا ليس فوزاً ديموقراطياً، هذه ردّة فعل عرقية... أنت تعرف أكثر مني كيف تجري الأمور في إفريقيا، ليس للدستور أي وزن... الجيش يساند أوبرونا... في هذه البلاد لا يفوزون بالانتخابات من دون أن يكونوا ممثّلين للجيش... لست متفائلاً مثلك... سوف يدفعون ثمن هذه المواجهة عاجلاً أم آجلاً...».

تعشّينا باكراً جداً. أعددت عجّة البصل وقدّمت آنّا شرائح الأناناس واللبن بالفريز الذي تُحضّره راهبات كلاريس، وشاهدنا قبل أن ننام النشرة الإخبارية في غرفة والدي. كانت الصورة مشوّشة وتهتزّ إلى حدّ كبير، حرّكت الهوائي فوق التلفاز فظهر رئيس الأركان بيير بويويا يجلس أمام علم بوروندي، فقال بصوت هادئ: «أقبل بكل احترام خيار الشعب وأدعوه للقيام بالمثل». فكّرت في الحال في إينوسان. ثم ظهر على الشاشة الرئيس الجديد ميلشيور ندادايه. قال بكل هدوء: «هذا انتصار لكل البوروندييين». وهنا فكّرت في بروتيه. في آخر النشرة، عاد رئيس الأركان العامة وبدأ يتكلّم بدوره: «الجيش يحترم الديموقراطية التي تأسست على التعدّدية الحزبية». فكّرت حينئذٍ بكلام والدي.

كنت أنظّف أسناني قبل النوم عندما سمعت آنّا تزعق. هرعت إلى غرفتنا، كانت تقف فوق السرير متعلّقة بالستارة. وسط الغرفة فوق البلاط كان هناك حريش أم أربع وأربعين زاحف. سحقه والدي وهو يصيح: «قذارات!» لحظة دخولي إلى السرير سألت والدي إذا كان وصول هذا الرئيس الجديد خبراً جيّداً. أجاب: «سوف نرى بالتأكيد».

عزيزتي لور:

انتخب الشعب. يقولون في المذياع إن نسبة المشاركة بلغت 97.3%، ما يعني كل الشعب باستثناء الأطفال والمرضى في المستشفيات والسجناء في الحبوس والمجانين في المأوى واللصوص المطلوبين من الشرطة، الكسالى القابعين في أسرّتهم، الكُتع غير القادرين على الإمساك بورقة الاقتراع والأجانب مثل والدي ووالدتي أو دوناتيان الذين يحقّ لهم العيش هنا والعمل ولكن ليس إعطاء رأيهم الذي يجب أن يبقى هناك حيث جاؤوا. اسم الرئيس الجديد ميلشيور مثل الملك المجوسي. البعض يعشقه، مثل بروتيه طبّاخنا. يقول إن هذا انتصار للشعب. البعض الآخر يكرهه، مثل إينوسان سائقنا، ولكن أؤكّد لك، ذلك لأنه مشاكس وخاسر شرّير.

أرى الرئيس الجديد رزيناً، يقف بشكل حسن، لا يضع مرفقيه على الطاولة، لا يُقاطع الكلام. يرتدي ربطة عنق وحيدة اللون، قميصاً مكويّاً بشكل جيد ويلقي صيغاً مُهذّبة ضمن خطاباته. هو ذو مظهر لائق ونظيف. هذا شيء مهم! لأنه سيتوجّب علينا تعليق صوره في كل البلاد كي لا ننسى أنه موجود.

شيء مُزعج أن يكون لدينا رئيس يهمل مظهره أو يرمق بوقاحة في صوره المعلّقة في الوزارات والمطارات والسفارات وشركات التأمين، في مراكز الشرطة والفنادق والمشافي والملاهي ودور الحضانة والثكنات والمطاعم وصالونات الحلاقة ودور الأيتام.

فضلاً عن ذلك، أسأل نفسي حقّاً أين صارت صور الرئيس القديم؟ هل رُميت؟ ولكن ربما هناك مكان ما يحتفظون بها فيه، في حال قرّر العودة في يوم من الأيام؟

هذه هي المرّة الأولى التي يكون لدينا فيها رئيس ليس عسكرياً. أعتقد أنه سوف يكون لديه مشاكل أقلّ من أسلافه. الرؤساء العسكريون يعانون دائماً آلاماً في الرأس وكأن لديهم دماغين، لا يعرفون أبداً إذا كان عليهم أن يصنعوا السلام أو الحرب.

كابي

14

العظاءة مُمدّدة فوق العشب في آخر الحديقة. وبمساعدة الحبال وسيقان الخيزران، قام عشرات الرجال بإنزال الحيوان من الشاحنة الصغيرة. انتشر الخبر بسرعة في الزقاق وتشكّل جمع من الفضوليين حول التمساح الميّت. كانت عيناه الصفراوان اللتان لا تزالان مفتوحتين يخترقهما بؤبؤاه الطوليان مثل ندبة يعطيان انطباعاً غير مُريح وكأن الحيوان يراقب الحضور. في قمّة الجمجمة جرح شبيه ببرعم وردة يشير إلى الإصابة القاتلة. جاك الذي جاء من زائير خصّيصاً، كان قد أردى الحيوان برصاصة واحدة. قبل أسبوع، كان هناك سائحة كندية تمشي على امتداد البحيرة، عند شاطئ نادي العطلات، خطفها تمساح. مثل كل مرّة في هذه الحالة، سارعت السلطات المحلّية وأرسلت حملة عقوبة لصرع التمساح أخذاً بالثأر. كنت أنا ووالدي في هذه المغامرة جزءاً من المشاهدين العاديين المحظوظين، وكان جاك يُنجز هذه العمليات منذ سنوات مع فريق مؤلّف من بعض الرجال البيض المولعين بصيد الطرائد الكبرى. ركبنا قارباً من نادي الملاحة ومعنا الذخائر وبنادق الغدّارات القصيرة، سار القارب ذو المحرّك بمحاذاة الضفّة حتى وصل إلى مصبّ «روزيزي»، في الموضع الذي يلاقي فيه النهر العكر الموحل مياه نهر تاتغانيكا اللازوردية. صعدنا ببطء في مياه الدلتا بينما كان الصيّادون يراقبون وأصابعهم على الزناد. كانت تجمّعات أفراس النهر المتفرّقة تخشى في كل لحظة هجوم ذكر أعزب، وكان

يطغى على صوت مُحرّك القارب زقزقات مستعمرات عصافير أبو نسّاج التي تتدلّى أعشاشها برخاوة من أغصان الأكاسيا. كان وينشستر على مقربة مني يرفرف بجفنيه من ضوء الشمس ويراقب المحيط بمنظاره المزدوج. لمح جاك بمنظار سلاحه التمساح ممدداً فوق شطٍ رمليّ يفتح شدقيه على اتساعهما مستمتعاً بحمّام شمسي في بداية بعد الظهيرة تلك. ثمة طير أبو ظفر [21] كان ينظّف أسنان التمساح بدقّة ومهارة. عندما أطلق جاك الرصاصة طار سرب من طيور التمّ فوق قصب البوص الذي يحفّ بالضفّة. كان للطلقة صوت تقصّف خاطف لخشب يطقطق. أُعدم الحيوان في وقت راحته، بالكاد تسنّى له الوقت كي يتحرّك. انغلق فكّه على مهل. تقافز الطير للحظات حول صديقه كمن يريد تقديم التكريم الأخير له، وطار بعيداً ليعتني بفم تمساح آخر.

بعد رحيل الفضوليين مدّدنا الحيوان على ظهره وقام جاك بتقطيع التمساح بإتقان ممنهج. كان يضع قطع اللحم في أكياس بلاستيكية، وبروتيه يرتّبها بدوره في الثلّاجة الكبيرة في المرأب. وبانتظار أن ينتهوا، كان الليل يحلّ بسرعة ولم يجهز شيء بعد، في حين كان الحدائقي يساعد دوناتيان في إخراج الطاولات والكراسي. أحضر إينوسان الفحم من أجل الشواء، وأضاء جينو المصابيح المعلّقة في أشجار التين. مدّ والدي وصلة إضافية إلى الطاولة كي يضع عليها جهاز الستيريو في الحديقة. كُلّفت آنّا بوضع حلقات البخّور الحلزونية الطاردة للبعوض تحت الطاولات. كانت سهرة خاصة، إذ كنّا نحتفل بعيد ميلادي الحادي عشر!

عندما بدأت الموسيقى تنطلق إلى خارج أسوار الحديقة، شدّت انتباه الجيران مُجدّداً. السكارى الذين جذبهم احتمال الشرب المجّاني، غادروا ملهى الزقاق على غير العادة. وبسرعة كبيرة، اجتاح الحديقة هرج ومرج من الأحاديث تختلط بهدير الموسيقى الصادرة عن مكبرات الصوت، كنت أفيض فرحاً وسط حركة الغادين

والرائحين التي لا تتوقّف داخل تلك الأيكة تحت القمر، حيث كان الجو عيداً والدموع تسيل من الضحك.

كان هذا في بداية العطلة الصيفية والتي بدأت على نحو رائع، فقد تلقّيت أخباراً من لور: «عزيزي كابي! أُمضي أوقاتاً في غاية المرح على شاطئ البحر مع أولاد أعمامي وأخي الصغير. شكراً على رسالتك، ما تكتبه مُضحك جداً. لا تنسَني خلال العطلة... إلى اللقاء. قبلاتي. لور».

على ظهر البطاقة البريدية تشكيلة من صور صغيرة لمنطقة الڤانديه: قصر «نوارموتيه»، صفّ من العمارات في «سان جان دومون»، شاطئ في «نوتردام دومون»، سلسلة من الصخور داخل البحر في «سان هيليردوريه». قرأت وأعدت قراءة الرسالة عشرات المرّات وبي إحساس خاص على الدوام أنني مميّز بالنسبة إلى لور. كانت تطلب مني ألا أنساها، لم يكن يمرّ يوم واحد دون أن أفكّر بها. في رسالتي التالية وددت أن أقول لها كم تعني لي، وللمرّة الأولى في حياتي شعرت أنني أستطيع أن أُعبّر عن مشاعري لأحد، وتمنّيت أن أستمر في الكتابة إليها طوال حياتي، لا بل أن أذهب وأراها ذات يوم في فرنسا.

الخبر الجميل الآخر لبداية ذاك الصيف هو أن والديّ عادا إلى الوفاق من جديد بعد أشهر من الحرب الباردة. هنآني معاً على نجاحي وترفّعي إلى الصف السابع. قالا: «نحن فخوران بك.» «نحن الثنائي»، إعادة الوحدة. كانت كل الآمال مُباحة!

اتصل خالي باسيفيك من رواندا كي يُهنّئني بعيد ميلادي. قال إن اتفاقات السلام قد استؤنفت وهو على ما يُرام ومشتاق إلينا، وتمنّى لو كان معنا بمناسبة هذا الاحتفال الكبير. كان قد خطب فتاة اسمها جان، وقع في غرامها لدى وصوله إلى رواندا وهو لا يطيق صبراً كي يعرّفها إلى العائلة. وصفها بأنها أجمل امرأة في

منطقة البحيرات العظمى. كان قد أفضى إليّ بسرّ: «عندما تنتهي الحرب، سوف أبدأ بمهنة الغناء كي أكتب أغاني الحب الخاصة وأتغنّى بجمال زوجة المستقبل».

كانت الأمور من حولي تسير نحو الأفضل وتستعيد الحياة مكانها شيئاً فشيئاً؛ في ذلك المساء كنت أستمتع بطعم السعادة لأنني مُحاط بأولئك الذين أحبّهم ويحبونني.

كان جاك جالساً في الشرفة الكبيرة يروي للحضور المذهول تفاصيل صيده التمساح. كان ينقّل حركاته، ينفخ صدره، يشدّد على حرف الراء في لهجته الوالونية[22]. وبحركاته السينمائية، كان يُخرج قدّاحته الزيبو الفضّية من جيبه كأنه يستلّ مسدّساً من قرابته كي يُشعل سجائر يتركها فيما بعد تتدلّى بإهمال من زاوية شفتيه. كان لكل هذا وقعه الكبير لدى السيدة إيكونوموبولُس التي بدت وكأنها مسحورة بجاذبية شخصيته وحس فكاهته، فكانت تغدق عليه بكلمات الإطراء، وهو بدوره يتقبّلها باستمتاع. كانت نكات جاك تثير حماسة السيدة إيكونوموبولُس وتأخذ بها إلى ضحكات مجلجلة تُعطيها مظهر مراهقة عاشقة. لقد كانا مُندهشين كيف أنهما لم يلتقيا في وقت أبكر؛ تحدّثا لساعات بأكملها عن زمن الماضي الجميل عندما كانت بوجومبورا لا تزال تحمل اسم أوزومبورا، تحدّثا عن الفندق الكبير، عن حفلات فندق باجيداس الراقصة وفرق الجاز الموسيقية، عن سينما كيت كات، عن الأميركيات الجميلات، وسيارات الكاديلاك والشيفروليه في شوارع المدينة، تحدّثا عن عشقهما لأزهار الأوركيد، عن نبيذ أوروبا البعيدة الرائع، عن الاختفاء الغامض لمُقدّم البرامج الفرنسي فيليب دوديولوڤو وفريقه بالقرب من سد إينغا، عن اندفاعات بركان نيراغونغو، وحممه البركانية الرائعة، عن لطف مناخ المنطقة، عن جمال البحيرات والأنهار...

كان بروتيه يمرّ بين الضيوف عارضاً البيرة وشرائح لحم التمساح المشويّة.

دفع إينوسان بالطبق الذي قدّمه إليه بتكشيرة قرف: «يَعق! البيض والزائيريون فقط يأكلون لحم التماسيح والضفادع. لن ترى بوروندياً واحداً يليق بهذا الاسم يقارب حيوانات الأدغال! نحن متحضّرون ومختلفون!» ردّ عليه دوناتيان جذلاً ودهن التمساح يلمع على فمه: «بكل بساطة، البوروندیون ينقصهم الذوق وها هم البيض يبذّرون. الفرنسيون مثلاً، لا يعرفون كيف يأكلون الضفادع، يكتفون بأرجلها فقط!»

كان آرمان الواقف أمام جهاز الستيريو يقوم بتعليم آنّا بعض خطوات رقصة السوكوس[23]. كانت الصغيرة تتدبّر أمرها جيداً إذ كانت قد لفّت حول ردفيها مئزراً وأفلحت بهزّهما دون أن تحرّك بقية جسمها. وسط حلبة الرقص، تحت ضوء مصباح تهاجمه الحشرات، كان والدا التوأمين يرقصان باسترخاء كعاشقين أضناهما الحب، الخدّ على الخدّ، كأنهما في زمن لقائهما الأول، زمن أوركسترا غراند كاليه الأسطورية. كانت والدة التوأمين أطول بكثير وأقوى من والدهما. وبينما كانت تقود الرقصة، كان هو مُغمض العينين يحرّك فمه مثل جروٍ يحلم، والعرق يُلصق قميصيهما على ظهريهما ويرسم دوائر تحت إبطَيْ كل منهما.

كان والدي ينضح بالمرح والمزاج السعيد، وهذا شيء غير مألوف. فقد ارتدى ربطة عنق ووضع قليلاً من العطر وسرّح شعره إلى الوراء ما أبرز جاذبية عينيه الخضراوين. أما بالنسبة إلى أمي فقد كانت متألقة بفستانها الموسلين المزهّر، وحين تمرّ بالقرب من الرجال كانت تلمع الرغبة في عيونهم. مرّات عديدة فاجأت والدي بالذات وهو ينظر إليها. كان يجلس على طرف حلبة الرقص يتحدث في الأعمال والسياسة مع والد أرمان الذي كان قد عاد توّاً من المملكة العربية السعودية، ويبدو كمن أراد أن يعوّض عن أشهر الحرمان الطويلة من الكحول التي خضع لها. إلى جانبهما كانت والدة أرمان تلبس مثل ضفدع الجرن المقدّس، تتمايل برأسها وترفع حاجبيها على فترات منتظمة. وكان من المستحيل معرفة فيما إذا كانت توافق على كلام زوجها الذي يتحدّث عن ثبات سعر البوروندية في بورصة لندن، أو أنها تتلو

سبحتها للمرّة المليون في ذلك النهار.

كنت ممدّداً على غطاء محرّك الشاحنة الصغيرة يحيط بي جينو والتوأمان عندما شاهدنا وصول فرانسيس. لم نصدّق أعيننا! بالكاد دخل إلى مكان الاحتفال حتى بادرت أمي ووضعت زجاجة فانتا بين يديه، ثم دعته إلى الجلوس على كرسي بلاستيكي تحت شجرة التين الكبيرة. بدأ جينو يتفجر بالوعيد.

– كابي، هل ترى ما أرى! عليك أن تطرد هذا المغفّل! لا شأن له بعيد ميلادك.

– لا أستطيع يا صاحبي. قال أبي إن الحفلة مفتوحة لكل أهل الحيّ.

– ليس فرانسيس، بحقّ الجحيم! إنه ألدّ أعدائنا!

– ربما هذه فرصة سانحة للتصالح معه، قال التوأمان.

– يا لكما من أبلهين عنيدين، أجاب جينو. لا صلح مع هذه الحشرة الحقيرة! سوف نحطّم وجهه اللعين، هذا كل ما يستحقه!

– الآن لا يسيء إلى أحد، قلت. لندعه يكمل زجاجة الفانتا ونحن نراقبه.

لم نتركه يغيب عن أنظارنا لحظة واحدة، كان يتظاهر بعدم رؤيتنا. مع ذلك، كانت عيناه تمسحان المكان، تُحلّلان، تكتشفان السهرة، يتطلّع إلى الحضور شزراً وهو يهزّ ساقه اليسرى بعصبية. نهض ليأخذ مشروباً وبدأ حديثاً مع أمي التي استدارت باتجاهي وهي تدلّ عليّ بإصبعها كأنها تقول له إنها أمي. كان يتنقّل من زمرة إلى أخرى، يجد لنفسه بشكل عفوي طريقة للمشاركة في الأحاديث، هنا وهناك، حتى مع والد جينو.

– لا أصدّق هذا، إنه يتحدّث مع والدي! ماذا يمكن أن يتبادلا من أحاديث؟

أنا واثق من أنه يأخذ معلومات عنا يا كابي. إنه يعرّف عن نفسه كصديق لنا!

من بعيد رحنا نراقب جولته الصغيرة. دعاه إينوسان إلى مشاركته زجاجة بيرة. بعد دقائق قصيرة صارا يربّتان ظهري بعضهما بعضاً مثل أصدقاء قدامى.

تجاوز الوقت منتصف الليل الآن وامتزج مفعول الليل بالكحول. كان في الحفل زمرة شبّان VSN فرنسيين عراة الصدور يلعبون بقفزة الخرفان أمام سكارى الملهى المستمتعين بالعرض. رأيت شاباً يمدّ يده داخل حمّالة صدر صديقته بينما كانت تتحدّث مع رفيقة لها عن دروس الأخلاق في ستيلا ماتوتينا. عجوز بوروندي له لحية بيضاء يُلقّب ب«غورباتشوف» بسبب وحمة على جبينه، كان يقف على رجل واحدة يستظهر قصائد رونسار أمام قفص الببغاء، زمرة من الأولاد تلاعب قردة مُدرّبة صاحبها فلامندي مُخنّث يسكن في الزقاق يسمّي نفسه فيفي، لا يرتدي سوى قمصان بتزيينات ملوّنة وجلابيات إفريقية. تراكمت فوق درجات سلّم المطبخ أكداس من الصناديق الفارغة، وكان بروتيه ودوناتيان يروحان ويغدوان إلى الكشك القريب لإحضار الزجاجات المطلوبة.

بدت الفرصة سانحة للعثور على ركن هادئ مع الأصدقاء بعيداً عن أنظار الأهل، في الجزء غير المُضاء من الحديقة. جلسنا على العشب كي نتشارك بضع سجائر، ونظرنا خفية إلى حلبة الرقص تحت المصابيح المتدلّية من التينة. أحضر أرمان معه زجاجتي بيرة بريموس خبأهما خفية داخل أصص السرخس.

– اللعنة! دست على شيء! قال أرمان.

– إيييه، انتبه! هذه جثّة التمساح، ردّيت.

عندما توقّفت الموسيقى بين أغنيتين، سمعنا صوت مضغ وابتلاع. كانت الكلاب الصغيرة للسيّدة إيكونوموبولُس تستمتع ببقايا الحيوان الميّت وتُتخم في العتمة.

رفع الرفقاء نخباً لأعوامي الأحد عشر.

– سوف تمشي كلاب السيدة متباهية في الزقاق عندما ستقول لبقية الكلاب إنها أكلت لحم تمساح! قال جينو.

انفجرنا جميعاً في الضحك، باستثناء أرمان الذي لاحظ أحدهم يقترب منّا. أطفأت سيجارتي وأبعدت الدخان بيدي.

– من هناك؟ سألت.

– هذا أنا فرانسيس.

– لا شغل لك هنا، ردّ عليه جينو في الحال وهو يقفز على ساقيه.

– اغرب عن وجوهنا!

– هذه حفلة للحيّ وأنا أسكن في الحيّ! لا أرى أيّ مشكلة، قال فرانسيس.

– لا، هنا عيد ميلاد صديقي ولست مدعوّاً. ارحل أقول لك!

– من يتكلّم؟ أنا لا أراك، هل هذا ابن كوداك؟ البلجيكي صاحب الشعر النتن! ما اسمك مرّة أخرى؟

– جينو! وانتبه إلى كلامك عندما تتحدّث عن والديّ.

– والداك؟ لم أتحدّث سوى عن والدك. على فكرة، أين أمك؟ رأيت أهل كل الناس باستثناء أمك...

– هكذا إذاً، جئت تتجسّس علينا؟ قال أرمان. تقوم بتحقيقك الحقير، مفتّش كولومبو؟

– نحن لا نريدك، تابع جينو. اغرب عن وجهنا!

– لا! أنا باقٍ!

نطح جينو بطن فرانسيس برأسه. في الظلام تعثّر الاثنان فوق التمساح المبقور البطن وبدأت الكلاب تعوي. سارعتُ أخبر الكبار بينما كان أرمان يخبئ السجائر والبيرة. فوصل جاك وأبي ومعهما مصباح يدوي. عندما تمكنا من فصل فرانسيس وجينو بعضهما عن بعض، كانا ملطَّخين وملوَّثين بأحشاء التمساح، اتهمنا فرانسيس بأنه جاء كي يفتعل شجاراً، عندئذ أمسكه أبي من ياقته ورماه خارج المكان. عندما ألفى فرانسيس نفسه مهاناً، صاح وهو يرمي بعض الحصى على بوابة الحديقة بأننا سوف ندفع الثمن. رحت أنا والرفقاء نرفع له أصابعنا الوسطى وأنزلنا سراويلنا لندير له أقفيتنا، ترافق كل ذلك مع تهليلات فرقة المتطوعين الفرنسيين، وكان الكل يضحك ويمرح إلى اللحظة التي صاح فيها جاك:

– سحقاً، أين قداحتي الزيبو؟ أين قداحتي؟

– أمسكوا هذا الحقير! صاح جينو.

أرسل أبي إينوسان للبحث عنه، لكنه عاد وهو يغمغم.

بمجرد مرور الحادثة استؤنف الاحتفال بأحلى ما يكون وبلغ أوجه عندما انقطع التيار الكهربائي فجأة. توقف المدعوون المائة بغتة عن الرقص وأطلقوا صيحة استياء واحدة: «أووووه». راحوا وهم غارقون بعرقهم يطالبون بعودة الموسيقى، يصفقون بأياديهم وبأرجلهم ويصيحون باسمي: «كابي! كابي!». كان كل واحد منهم قد بلغ حداً من الابتهاج في الحفلة الكبرى ولم يكن لهذا الحدث الطارئ أن يخفّف من رغبتهم الجامحة في المرح. طالب أحدهم صائحاً إكمال الحفل بآلات موسيقية حقيقية. عندئذ ذهب كل من دوناتيان وإينوسان بسرعة لجلب الطبلات من الحيّ، وأحضر التوأمان غيتار والدهما وأخرج أحد الفرنسيين آلة البوق من صندوق سيارته طراز 4L. فجأة بدأت تهب رياح ماطرة منعشة، وسُمع في البعيد عند ضفاف البحيرة

دويّ عميق، كانت العاصفة تقترب. هذا ما أثار القلق لدى البعض، لا سيما المسنين الذين توقعوا زخات المطر ونصحوا بإدخال الطاولات والكراسي. قاطع دوناتيان الجدال بارتجال لحن موسيقى براكا على الغيتار. عاد الناس إلى الحركة بخجل في الليل الذي كان يشق سماءه البرق. سكتت جداجد الليل عندما بدأ السكارى يقرعون على زجاجاتهم بالشوك والملاعق ليرافقوا اللحن، وانضمّ صوت البوق إلى صوت الغيتار فاستقبلهما الصفير وصيحات الفرح، وبدأ الضيوف يرقصون مجدداً ببهجة مضاعفة. خافت الكلاب، وضعت أذيالها بين قوائمها وخرّت على الأرض تحت الطاولات بضع ثوان قبل أن تنفجر السماء: أصوات وأنوار وزخات وفرقعات. دخلت الطبلات إلى الساحة تسرّع الإيقاع، ولم يقاوم أحد دعوة هذه الموسيقى الجامحة التي كانت تجتاح أجسادنا مثل روح عطوفة. البوق الذي اختنق صوته كان يحاول قدر استطاعته أن يتبع وزن النقر على الطبول، في حين كان بروتيه وإينوسان يقرعان معاً على جلدي طبلتيهما المشدودتين وقد تغضّن وجهاهما من الجهد، وسرى العرق الكثيف على جبهتيهما اللامعتين، وكانت أيدي الضيوف تصفّق على الوزن وأقدامهم تضرب رافعة غبار الفناء الثقيل عالياً، والموسيقى تتسارع أكثر بكثير من التغضن في أصداغهما. جاءت الضربات فوق الضربات، هبت الرياح، حرّكت قمم أشجار الحديقة، ثم أحسسنا بحفيف الأوراق وارتعاش الأغصان، وكان يطفو في الجو شيء من الكهرباء وصار للهواء رائحة التراب المبلول. مطر ساخن كان على وشك أن يهطل علينا بشدة، وبدأنا حينذاك نركض لجمع الطاولات والكراسي والصحون قبل أن نذهب ونلتجئ تحت الشرفة المسقوفة ونتفرج على الحفل يذوب في ضوضاء أعاصير المياه. قريباً سينتهي عيد ميلادي، كنت أستغل تلك الدقيقة قبل المطر، لحظة السعادة المعلّقة عندما تعشقت الموسيقى بقلوبنا، وملأت الفراغ في ما بيننا، محتفية بالحياة وبأبدية عمري الحادي عشر، هنا، تحت التينة، كاتدرائية طفولتي، كنت أعلم حينذاك في أعمق أعماقي أن الحياة سينتهي بها المطاف إلى أن تصطلح.

15

كانت العطلة الصيفية أسوأ من البطالة. بقينا في الحيّ نبدّد الوقت دون أن نفعل شيئاً، نبحث عن أشياء تشغل أيامنا الرتيبة. حتى وإن كنا نضحك أحياناً، إلا أنه يجدر الاعتراف بأننا كنا نضجر مثل زواحف نافقة. وفي موسم الجفاف، كان النهر يتحول إلى مجرى ماء رفيع يستحيل أن نتبرّد فيه، وثمار المانغا التي فسدت من الحرارة يستحيل بيعها، والنادي البحري بعيد جداً لا يمكننا الذهاب إليه بعد ظهر كل يوم.

سررت جداً بالعودة إلى المدرسة، وصار أبي يضعني الآن أمام باب الكبار، إذ أصبحت في الثانوية في الصف نفسه مع رفقائي وبدأت توّاً حياة جديدة. أصبح لدينا حصص بعد ظهر بعض أيام الأسبوع وكنت أكتشف مواد جديدة مثل العلوم الطبيعية واللغة الإنكليزية والكيمياء والفنون التشكيلية، وكان عدد من التلاميذ الذين قضوا العطلة الصيفية في أوروبا أو في أميركا قد عادوا بملابس وأحذية على الموضة. في البداية لم أعر انتباهاً لذلك، لكن أرمان وجينو لم يكفّا عن الحديث عن ذلك وعيونهما تلمع، فتحوّل هذا الحسد إلى هوس وانتهى بي المطاف إلى أن أصبت بالعدوى. من الآن فصاعداً، لم تعد القصة تتعلق بالبلي[24] أو بأشكالها، إنما بالملابس والماركات، وإن أردنا الحصول على أشياء مماثلة كان يلزمنا الكثير من

المال. حتى وإن بعنا كل ثمار المانغا في الحيّ لن نتمكن من أن ندفع ثمن حذاء ال. NIKE الذي يحمل إشارة ال. √.

كان أولئك العائدون من أوروبا وأميركا يحكون لنا عن المخازن الكبرى هناك بطول كيلومترات وتفيض بالأحذية والقمصان والمايوهات الرياضية والجينز. في بوجا لم يكن لدينا شيء، باستثناء واجهة محل «باتا» العارية وسط المدينة، أو بسطات سوق جابيه التي تعرض أحذية الريبوك المثقوبة أو ماركات مشهورة إنما بخطأ إملائي. كنا تعساء لأننا محرومون من تلك الأشياء التي فاتتنا حتى ذلك الحين، وكان هذا الشعور يغيّرنا من الداخل وبدأنا نكره أولئك الذين يمتلكونها.

دوناتيان الذي لاحظ ميلي الجديد إلى الماركات، ونزعتي إلى النمّ على بعض الصبيان الأغنياء في المدرسة، كان يقول لي إن الحسد خطيئة جوهرية. كانت دروسه الأخلاقية تعبر من فوق رأسي وأصبحت أفضّل التحدث مع إينوسان الذي كان لديه الحيل كي يعثر لي بأقل الأسعار على الملحقات التي كنت أحلم بها. ومنذ ذلك الحين راحت تتشكل المجموعات في المدرسة وفقاً لمعايير جديدة: أولئك الذين يمتلكون يبقون معاً.

كان أرمان يشكل استثناء، فهو لا يمتلك الملابس العصرية ولا العطور ذات الماركات، لكنه كان يُضحك، وهذا ما كان يتيح له أن يتجاوز الحدود غير المرئية التي كانت تفصل بين الرفقاء ويصبح مقبولاً بين المجموعات العصرية، فيغدو جينو حينذاك لاذعاً حين يراه يقف بالقرب من المشرب مع أصحابه الجدد.

في إحدى الأمسيات، بينما كنا نجلس ممدّدَين تحت شجيرة الفتنة الهندية فوق حصير الحارس الليلي نغمس شرائح المانغا في الملح الكثيف قال لي جينو:

– أرمان خائن. عملياً لم يعد يوجه إلينا الكلام في المدرسة، لكن ما إن نصبح في الزقاق حتى نعود ونصبح أعز الأصدقاء.

– هو يستغل ذلك، هذا طبيعي. منذ بداية السنة وهو يُدعى إلى الحفلات كلها، قال لي التوأمان أيضاً إنه قبّل فتاة من فمها!

– احلف! باللسان؟

– لا أعرف، لكنه يتسلى أقلّه فيما نحن قابعون في الزقاق. لو كان بمقدوري القيام بالمثل لما تردّدت.

– أنت أيضاً تخجل من الشلّة؟

– ليس الأمر هكذا يا جينو. أنتم أصدقائي المفضّلون في الحياة! ولكن في المدرسة لا أحد يأخذنا في الاعتبار، الفتيات لا يعبأن بنا البتّة، هل تفهم إذاً...

– سينتهي بهن الأمر إلى رؤيتنا ذات يوم يا كابي والكل سوف يخاف منّا.

– ولكن لماذا تريدهم أن يخافوا منّا؟

– كي يحترمونا. هل تفهم؟ هذا ما تردّده أمي. يجب أن تكون محترماً.

أدهشني كثيراً سماع جينو يأتي على ذكر أمه فهو لم يكن يتحدث عنها قط. على المنضدة الصغيرة لصق سريره كنت أرى مغلفات حوافها مخططة بالأزرق والأبيض والأحمر كانت ترسلها إليه كل أسبوع، لكنه لم يكن يذهب قط إلى رواندا التي لا تبعد أكثر من بضع ساعات على الرغم من كل شيء، وهي أيضاً لم تكن تأتي قط إلى بوجومبورا. كان يقول إن الوضع السياسي لا يسمح لهم بالقيام بذلك في الوقت الحالي، ولكن ذات يوم عندما سيعود السلام، سوف يعود للعيش في منزل كبير في كيغالي مع والده ووالدته. يحزنني القول إن جينو كان مستعداً لتركي وترك الشلّة والزقاق. هو مثل أمي وجدتي وباسيفيك وروزالي، كان يحلم بالعودة الكبرى إلى رواندا، وأنا كنت أتظاهر بالحلم معهم كي لا أخيّب أملهم، لكنني في قرارة نفسي، كنت أصلّي كي لا يتغيّر شيء، كي تعود أمي إلى البيت، كي تعود الحياة كما

كانت، كي تدوم هكذا إلى الأبد.

كنت أفكر في كل ذلك عندما دوّى هدير قوي. خرج والد جينو من البيت مهرولاً مثل حمل مذعور، صاح يأمرنا أن نبتعد عن الجدران والمجيء معه إلى وسط الحديقة. نهضنا ضاحكين إذ بدا كأنه رأى شبحاً، ثم لحقنا به دون أن ندرك ما حدث. بعد دقائق قليلة، لدى رؤية الشقّ العريض الذي حدث في جدار المرأب على طوله، أدركنا أن الأرض تحركت تحت أقدامنا دون أن نشعر. هذا ما تفعله كل يوم هذه البلاد في هذا الركن من العالم. كنا نعيش فوق محور الفالق الأكبر، في المكان نفسه الذي تنكسر فيه إفريقيا.

الناس في هذه المنطقة شبيهون بتلك الأرض، تحت الهدوء الظاهري، وراء الوجوه الباسمة وخطابات التفاؤل الطويلة، ثمّة قوى أرضية مظلمة تعمل باستمرار وتحرّض على أعمال العنف والتدمير. كانت تعود على فترات متعاقبة مثل رياح منحوسة: عام 1988، عام 1972، عام 1965. شبح مخيف يصل دون استئذان على فترات منتظمة كي يذكّر البشر أن السلام ليس سوى فاصل قصير بين حربين. هذه الحمم الخبيثة، هذا الفيض الكثيف من الدم، كان مستعداً للصعود إلى السطح من جديد. لم نكن على علم بذلك بعد، لكن ساعة الجحيم قد دقّت توّاً، سوف يفلت الليل قريباً قطيع ضباعه وكلابه البرية.

16

كنت أهوّم نَعساً عندما شعرت بيد تلامس رأسي. ظننت للوهلة الأولى أن جرذاً يقضم أطراف شعري مثلما كان يحدث قبل أن يضع أبي المصائد في كل البيت. ثم سمعت صوت آنّا تهمس: «كابي، هل أنت نائم؟» أيقظني صوتها. فتحت عينيّ على اتساعهما، كانت غرفتنا غارقة في الظلام. فتحت الستارة بيدي اليسرى فعبر شعاع من القمر شبك النافذة الناعم الذي يصدّ البعوض وأضاء وجه أختي الصغيرة المذعور. «ماذا نسمع يا كابي؟»، لم أفهم، كان الليل ساكناً. تعرفت فقط إلى نعيق البومة الواقفة على السقف المستعار فوق غرفتنا. اعتدلت في جلستي وأصغيت إلى أن دوّت أصوات عميقة متقاربة. «كأنها عيارات نارية... « انسلّت آنّا إلى سريري والتصقت بي. أعقب صوت الانفجارات وإطلاق البوارید صمت مخيف. كنت أنا وآنّا بمفردنا في المنزل. اعتاد أبي قضاء لياليه في الخارج منذ بعض الوقت، يقول إينوسان إنه يعاشر فتاة تسكن في الشارع وراء بيتنا، في حيّ بويزا الشعبي. كان ذلك يؤلمني، إذ منذ أن عاد هو وأمي إلى التحدث أحدهما إلى الآخر صار لدي أمل أن يعودا إلى سابق عهدهما. ضغطت على الزر الذي يضيء ساعتي، كانت تشير إلى الثانية صباحاً. عند كل انفجار كانت آنّا تقترب منّي أكثر وتشدّ.

– ماذا يحدث يا كابي؟

– لا أعرف...

توقف الطلق الناري نحو السادسة صباحاً ولم يكن أبي قد عاد حتى ذلك الحين. نهضنا آنّا وأنا، ارتدينا ملابسنا ثم جهّزنا حقائبنا. بورتيه أيضاً لم يكن هناك. وضعنا مائدة الإفطار على الشرفة ثم أعددت الشاي. كان الببغاء يقوم بالشقلبات داخل قفصه. بحثت عن أي كان في الحديقة، لم يكن هناك أي كائن حيّ، حتى الحارس الليلي كان قد اختفى. بعد الطعام أفرغنا المائدة. ساعدت آنّا في تمشيط شعرها، لم يصل أحد إلى المنزل قط. كنت أراقب بوابة الحديقة إذ كانت هذه ساعة وصول الموظفين، لكن لا شيء كان يتحرك. جلسنا على درجات سلّم المدخل بانتظار وصول إينوسان أو أبي، وأخرجت آنّا دفتر الحساب من حقيبتها وبدأت تستظهر جدول الضرب. على الطريق أمام البيت، لم يكن هناك مشاة أو سيارات. ما الذي كان يحدث؟ أين الجميع؟ كنا نسمع لحن موسيقى كلاسيكية من الجوار. كان يوم خميس، غير أن الحيّ كان أكثر هدوءاً من صباح يوم الأحد.

أخيراً اقتربت سيارة. تعرفت إلى بوق الباجيرو فهرعت أفتح البوابة. كان وجه أبي رصيناً وتحت عينيه هالات سوداء. نزل من السيارة وسألنا إذا كنا على ما يرام، فأومأت برأسي علامة الإيجاب، لكن آنّا عبست. كانت حاقدة عليه لأنه تركنا طول الليل. مشى مسرعاً باتجاه الصالة وفتح المذياع، سمعنا لحن موسيقى كلاسيكية تنساب إلى الخارج. وضع يده على جبينه وهو يردّد: «اللعنة! اللعنة! اللعنة!». فيما بعد، علمت أن بث الموسيقى الكلاسيكية تقليد عندما يكون هناك انقلاب في الحكم. في 28 تشرين الثاني/نوفمبر عام 1966، أثناء انقلاب ميشيل ميكومبيرو، تم بثّ مقطوعة سوناتا على البيانو رقم 21 لشوبيرت. في 9 تشرين الثاني/ نوفمبر عام 197، أثناء انقلاب جان بابتيست بانجازا: السيمفونية السابعة لبيتهوفن. في 3 أيلول/ سبتمبر عام 1978، انقلاب بيير بويويا: مقطوعة بوليرو أو دو ماجور لشوبان.

في صباح ذاك اليوم الحادي والعشرين من شهر تشرين الأول/ أكتوبر عام 19، كان نصيبنا مقطوعة أقوال الآلهة لڤاغنر. أغلق أبي البوابة بسلسلة حديدية ثخينة وعدة أقفال. أمرنا بعدم مغادرة المنزل والبقاء بعيداً عن النوافذ. ثم وضع فُرشُنا في الممر خوفاً من مخاطر الرصاص الطائش. بقينا على امتداد النهار ممدّدين على الأرض. كان الأمر سخيفاً إذ شعرنا كأننا نخيّم داخل المنزل.

كالعادة، أغلق والدي على نفسه في غرفته ليقوم باتصالاته الهاتفية. نحو الساعة الثالثة، كنت ألعب الورق مع آنّا وكان أبي لا يزال على الهاتف، عندما سمعت خربشة في المطبخ. ذهبت خلسة كي أرى، كان جينو يقف وراء القضبان مقطوع الأنفاس فقلت هامساً:

– لا أستطيع أن أفتح لك، والدي أقفل البيت بالمفاتيح، كيف دخلت إلى الحديقة؟

– مررت تحت السياج. على كل حال، لن أبقى لوقت طويل. هل علمت بما حدث؟

– نعم أعرف، حدث انقلاب، سمعنا الموسيقى الكلاسيكية.

– قام عسكريون باغتيال الرئيس الجديد.

– ماذا؟ لا أصدقك... احلف.

– أقسم لك! اتصل صحافي كندي بوالدي كي يخبره. هذا انقلاب عسكري. قتلوا رئيس المجلس الوطني أيضاً وشخصيات كبيرة من الاستعماريين البيض في الحكومة... يبدو أن مجازر كبيرة بدأت في كل مكان داخل البلاد. وإليك أيضاً، هل تعرف أهم خبر؟

– لا، ماذا أيضاً؟

– هرب أتيلا!

– أتيلا حصان آل ڤان غوتزن؟

– إيـــــــه! هذا جنون، أليس كذلك؟ أثناء الليل سقطت قذيفة بالقرب من اصطبلات نادي الفروسية، وراء المقر الرئاسي. اشتعل أحد المباني فأصيبت الخيول بالهلع، جنّ جنون أتيلا، كان يشبّ ويصهل كالمجنون وبدأ يرفس الباب بحافره، كسر القفل ثم قفز فوق الحواجز قبل أن يختفي في المدينة... ليتك شاهدت السيدة ڤون غوتزن هذا الصباح... وصلت إلى منزلنا بقميص النوم، اللفائف في شعرها وعيناها منتفختان من البكاء. مضحكة جداً! كانت تريد من أبي أن يستفيد من علاقاته للعثور على حصانها، وهو لم يكف عن ترديد: «حدث انقلاب عسكري سيدة ڤون غوتزن، لا أستطيع أن أفعل شيئاً من أجلك، حتى رئيس الجمهورية لم يستطع أن يفعل شيئاً من أجل نفسه». وهي تزداد إلحاحاً: «يجب العثور على أتيلا. اتصل بالأمم المتحدة! بالبيت الأبيض! بالكرملين!». لم يكن يهمّها اغتيال الرئيس، لم تكن تتحدث إلا عن كديشها، تلك المومس العجوز العنصرية! حياة الحيوانات أهم من حياة البشر. حسناً، سوف أتركك يا كابي، يجب أن أذهب بسرعة. بقية الأحداث في الحلقة القادمة».

رحل جينو راكضاً. كان يبدو مُستثاراً تماماً من الوضع كأنه سعيد لأن أموراً خطيرة تحدث. من ناحيتي، كنت تائهاً وأجد صعوبة في الفهم. قُتل الرئيس... أعدت التفكير بما قاله أبي يوم فوز نداداية: «سوف يدفعون ثمن هذه المواجهة عاجلاً أم آجلاً».

في ذاك المساء نمنا في وقت أبكر. كان أبي يدخن أكثر من المعتاد. هو أيضاً أحضر فراشه إلى الممر وراح يصغي إلى المذياع الصغير وهو يداعب شعر آنّا التي كانت تنام بعمق. شمعة واحدة فقط كانت تضيء الرواق وتكشف أطرافه.

نحو الساعة الثالثة والنصف توقفت الموسيقى الكلاسيكية. استهلّ الكلام باللغة الفرنسية مذيع كان يتنحنح بين العبارة والأخرى. بدا صوته متناقضاً مع خطورة الموقف، كأنه كان يعلن نتائج دوري كرة الطائرة المحلية: «اتخذ مجلس الإنقاذ الوطني القرارات التالية: منع التجول على جميع الأراضي من الساعة السادسة مساء وحتى السادسة صباحاً. إغلاق الحدود. يمنع الانتقال بين التجمعات. يمنع التجمع لأكثر من ثلاثة أشخاص. يدعو مجلس الإنقاذ الوطني المواطنين كافة إلى الالتزام بالهدوء». كنت قد غفوت قبل نهاية اللائحة. حلمت بأنني أنام مطمئناً، معلقاً داخل غيمة صغيرة ناعمة ووثيرة، تشكلت من أبخرة الكبريت المتصاعدة من بركان ثائر.

17

بقينا عدة أيام ننام في الممر بين الغرف دون أن نغادر البيت طوال اليوم. اتصل رجال أمن السفارة الفرنسية بوالدي ينصحونه بتجنب الخروج من البيت لأي سبب. أمي التي كانت تقيم عند إحدى صديقاتها في مرتفعات المدينة، كانت تتصل بنا كل يوم لتطمئن علينا، وكان المذياع يعلن عن مجازر كبرى في وسط البلاد.

في الأسبوع التالي عدنا إلى المدرسة. كانت المدينة هادئة على نحو غريب، رفعت بعض المخازن أبوابها، لكن الموظفين كانوا قد التجأوا إلى السفارات الأجنبية أو إلى البلاد المتاخمة. لدى مروري من أمام القصر الرئاسي لمحت جدار السور المهدّم. كان ذلك هو الأثر الوحيد للمعركة الذي رأيناه في المدينة. في فناء المدرسة أثناء الاستراحة، كان التلاميذ يروون بعضهم لبعض أحداث ليلة الانقلاب، العيارات النارية، صوت القذائف، موت الرئيس، الفُرُش في الممرات. لم يبدُ أحد خائفاً. بالنسبة إلينا، نحن الأولاد المحظوظين في مركز المدينة والأحياء السكنية، لم تكن الحرب حتى ذلك الحين سوى كلمة بسيطة. كنا قد سمعنا أشياء، لكننا لم نرَ شيئاً. كانت الحياة مستمرة كما في سابق عهدها، مع حكاياتنا عن الحفلات والحب والماركات والموضة. كان خدم بيوتنا وموظفو أهلنا، أولئك الذين كانوا يعيشون في الأحياء الشعبية، في بوجومبورا الريفية داخل البلاد ولا يتلقون أي تعليمات أمنية من أي

سفارة، ولم يكن لديهم حراس ليليون لحراسة منازلهم ولا سائق لاصطحاب أولادهم إلى المدرسة، أولئك الذين كانوا يتنقلون مشياً على الأقدام أو على الدراجة أو في حافلات النقل العام، يتّخذون احتياطاتهم من الأحداث.

لدى عودتي من المدرسة كان بورتيه ينزع قشور قرون البازيلاء على طاولة المطبخ. كنت أعرف أنه انتخب نداداية وكانت فرحته عارمة عندما فاز، لذلك بالكاد تجرأت على النظر إليه.

– طاب نهارك بروتيه، كيف حالك؟

– سيد غابرييل، اعذرني، لا أقوى على الكلام. قتلوا الأمل. قتلوا الأمل. هذا كل ما أستطيع قوله. حقيقة، لقد قتلوا الأمل...

عندما غادرت المطبخ، كان لا يزال يردّد هذه العبارة.

بعد الغداء اصطحبني دوناتيان وإينوسان إلى المدرسة. صادفنا في الطريق عند جسر موها مدرّعة للجيش.

– انظروا بالله عليكم إلى هؤلاء العسكريين، إنهم تائهون، قال دوناتيان بصوت تعب. قاموا بالانقلاب، قتلوا الرئيس، وعندما رأوا الشعب غاضباً وصارت البلاد بين الدم والنار تراجعوا، ويطلبون الآن من الحكومة العودة كي تطفئ النار التي أشعلوها. يا إفريقيا المسكينة... ليكن الله في عوننا.

لم يكن إينوسان يتفوه بأي كلمة. كان يقود وينظر إلى الطريق أمامه. منذ ذلك الحين صارت الأيام تمضي بشكل أسرع بسبب حظر التجوال الذي كان يجبر كل إنسان على أن يكون في بيته في السادسة مساء قبل هبوط الليل. في المساء كنا نتناول عشاءنا ونحن نصغي إلى المذياع وأخباره المنذرة بالخطر. كنت قد بدأت أطرح الأسئلة على نفسي عن صمت البعض وإحجامهم عن الكلام وموافقة وتكهنات

البعض الآخر. هذه البلاد صيغت من الهمسات والألغاز، ثمة كسور غير مرئية، تنهدات، نظرات لم أكن أفهمها.

كانت الأيام تمضي والحرب يشتد وطيسها في الأرياف. هُدّمت قرى بكاملها وأُحرقت، هوجمت مدارس بالقنابل وأُحرق التلاميذ أحياء في داخلها، مئات الآلاف من الناس كانوا يفرّون باتجاه رواندا وزائير وتنزانيا. في بوجومبورا، كانوا يتحدثون عن مواجهات في ضواحي المدينة، وكنا نسمع أثناء الليل العيارات النارية في البعيد. بروتيه ودوناتيان كانا يتغيبان مراراً عن العمل لأن الجيش كان يقوم بعمليات تمشيط في حيّهما.

من قلب منزلنا الهادئ، كان كل ذلك يبدو غير واقعي، إذ كان الخمول يخيّم على الزقاق كعادته. وفي ساعة القيلولة كنا نسمع زقزقة العصافير على الأغصان، تهبّ نسمة تحرّك أوراق الأشجار، أشجار تين عملاقة ومهيبة تقدّم لنا ظلالاً شافية، لم يتغيّر شيء، كنا نتابع ألعابنا واكتشافاتنا، وكانت مواسم الأمطار الغزيرة قد عادت واستعاد الغطاء النباتي ألوانه الزاهية، وبدأت الأشجار تنوء بأحمال فاكهتها الناضجة، واستعاد النهر مستوى منسوبه الكامل.

بعد ظهر أحد الأيام، بينما كنا نحن الخمسة حفاة الأقدام والعصي بأيدينا في بحث دؤوب لسرقة ثمار المانغا، اقترح جينو أن نبتعد عن الحيّ قليلاً لأننا كنا قد سطونا على أشجار الزقاق كلها. وجدنا أنفسنا أمام سياج بيت فرانسيس. توجست شراً.

– دعونا نرحل من هنا وإلا ستكون هناك متاعب.

– كفى، لا تكن جباناً كابي! ردّ جينو، شجرة المانغا هذه لنا.

كان أرمان والتوأمان ينظرون بعضهم الى بعض حائرين، لكن جينو ألحّ.

تقدمنا ببطء في الممر بخطى مكتومة فوق الحصى. كان الدخول إلى أرض الحديقة يسيراً إذ لم يكن هناك بوابة. في أعلى التل كان المنزل يبدو كئيباً بجدرانه القديمة المصدّعة والهالات الرطبة حول صفائح الجص المقببة في سقف الشرفة المستعار، وكانت أغصان شجرة المانغا متفرعة في كل أرجاء الحديقة. دنونا بحذر. كانت شباك صدّ البعوض القذرة وراء قضبان النوافذ تحجب الرؤية إلى داخل المنزل، الأبواب مغلقة والمكان هادئ جداً. وقفنا تحت الشجرة. أسقط جينو ثمرة مانغا، ثم ثانية، ثم ثالثة. كانت عصاه تحرّك الأغصان كأنها منقار طير أبو قرن عملاق[25]، لكنني بقيت في حالة تأهب.

فجأة لمحت طيفاً خاطفاً يمر وراء ستارة البعوض المغبرّة. «انتظروا!» جمدنا جميعاً ودققنا النظر إلى البيت. كان الصمت يلفّ المكان. لم نكن نسمع سوى خرير نهر موها في آخر الحديقة. استأنف جينو قطاف المانغا، وكان أرمان يحمّسه راقصاً يهزّ ردفيه كلما سقطت ثمرة فوق العشب. أما أنا والتوأمان فكنا في حالة حذر. طار وراءنا طير خافقاً جناحيه فاستدرنا. كان أرمان والتوأمان قد أطلقوا سيقانهم للريح بسرعة الضوء باتجاه الطريق، ثم انطلق جينو ولحقت به دون تفكير. درنا حول المنزل ونزلنا في الطريق المنحدر إلى نهر موها. أصابني خوف الفريسة. لم أكن على يقين من أن فرانسيس يلحق بنا، عندما التفتُّ كي أتحقق، تلقيت ضربة قبضته ووقعت صادماً وجهي بالحصى. انهال عليّ بالركلات كما ينهال قفير من الدبابير. كان جينو يصرخ محاولاً حمايتي، ثم شاهدته يسقط بدوره على مقربة سنتمترات مني. قادنا فرانسيس بيده حتى النهر، ثم قام بتغطيس رأسينا في مياه الموها الطينية، وبدأ يمرّغ وجهي بحصى قاع النهر فانقطعت أنفاسي. وعلى الرغم من أنني تخبطت كثيراً لأتحرّر، إلا أن يد فرانسيس كانت كالملزمة تطحن عنقي. عندما أخرجني إلى السطح، كنت أسمع نتف عبارات: «السرقة من حدائق الآخرين عمل سيِّئ. ألم يعلمكم أهلكم ذلك؟»، ثم أعاد تغطيس رأسي أولاً بغضب شلّ عظامي. كان كل شيء

مبهماً، يداي تتخبّطان بيأس تحاولان عبثاً الإمساك بشيء ما: بغصن، بعوّامة، بأمل... خمشت قاع النهر بأظفاري كمن يريد العثور على مخرج آخر، على حفرة، على باب خفيّ في قاع النهر. كانت المياه تتسرّب إلى داخل أذنيّ ومنخريّ في حين يتابع صوته خافتاً مقارنة بقبضته الممسكة بي تحت الماء. «زمرة أطفال مدلّلين، سوف أعلّمكم السلوك القويم». فضلاً عن خنقي، كان فرانسيس يحاول تربيتي. وبينما كان يرطم جبهتي بالأرض، كنت أبحث بغريزتي الوحيدة عن الهواء بأسرع ما يمكن. أين الهواء؟ كانت رئتاي تختنقان وتنقبضان وقلبي يخفق من الرعب محاولاً الفرار عبر فمي. كنت أسمع الصدى البعيد لصرخاتي المخنوقة، أنادي أمي وأبي. أين هما؟ فرانسيس لم يكن يمزح. كان قد قرر قتلي دون أدنى شك. أهكذا يكون العنف إذاً؟ خوف وذهول يستوليان على طبيعتك. كان يُخرج رأسي من النهر فجأة وأسمعه يقول: «أمهاتكم عاهرات البيض!» ويغرقه من جديد. بدأت أخسر المعركة. شيئاً فشيئاً، تراخت عضلاتي المنهكة. كنت راضخاً للموقف وأنا تحت المياه بعشرة سنتمترات وصوت فرانسيس يهدّدني. استسلمت للانزلاق دون أن أشعر. الخوف والخضوع لي، العنف والقوة له.

لكن جينو كان يرفض الغرق، يرفض المياه والكلام، ينظر إلى البعيد، كان يريد أن يقطف المزيد من المانغا في شهر نوفمبر القادم ويصنع قوارب من أوراق شجرة الموز الطويلة لينزلها في النهر. لم يكن مذعوراً ولا حتى مدهوشاً بهذا العنف الجديد، كان يتحدّاه. كان وهو تحت رحمة فرانسيس يتصرف حياله كالندّ للندّ. كان يجيب ويردّ ويسارع في ردّ الهجوم. كنت ألمح على نحو خاطف شرايين عنقه المنتفخة مثل دولاب منفوخ. «لا تشتم أمي! لا تشتم أمي!». شعرت بالضغط يخفّ حول عنقي. كان فرانسيس يحاول السيطرة على طاقة جينو المتزايدة ويحتاج من أجل ذلك لذراعيه الاثنتين ويديه وركبتيه كي يضعهما على ظهره. استعدت بعض الهواء إلى داخل رئتيّ. ركعت على يديّ ورجليّ أولاً قبل أن أتدحرج على ظهري ورحت

أبصق. هناك ضوء كثيف في تلك السماء الزرقاء. أغمضت عينيّ، كنت مبهوراً من الشمس، زحفت كي أضع رأسي على جذع شجرة موز ملقاة على الأرض وقد سدّت إحدى أذنيّ كلّياً.

– لا أحد له الحق بشتم أمي! كان جينو يكرّر ويعيد.

– بلى، أنا لي الحق إذا أردت. أمك العاهرة.

أعاد فرانسيس تغطيس رأس جينو في المياه الطينية نفسها حيث أردت الاستسلام. كان الوقت ساعة القيلولة ذروة حرارة النهار وكان الشارع خالياً، ما من سيارة واحدة تعبر فوق الجسر. كان جذع شجرة الموز إسفنجياً كاللحم الطريّ، فأسندت رأسي الدائخ إليه. بصقت مجدداً قبل أن أسعل وأنا أردّد الكلام مذعوراً. كان فرانسيس يتابع الكلام مثل النساء الغسّالات اللواتي يغمرن الغسيل في الماء وهنّ يثرثرن عن المطر والطقس الجميل. وعند نهاية كل عبارة يقولها فرانسيس، كان يختفي رأس جينو داخل زبد النهر. «قل لي إذاً: أين أمك العاهرة؟ لم نرَها في الحيّ قط... « كان جينو يلتقط بضع شهقات من الهواء قبل أن ينساب مثل قطعة فلّين قصبة الصيد حين تهتز وتعلق السمكة. كان يزعق تحت المياه، يُحدث جيشاناً حول رأسه. «أين أمك العاهرة؟» كلما ردّد فرانسيس كلامه يزداد جينو اختناقاً وأنا أصرخ بصوت أعلى كي يتركه، لكن فرانسيس كان يزداد تصميماً ويعيد الكرّة مع السؤال نفسه. كاد جينو أن يفقد قواه ويستسلم.

عندما وقفت أخيراً واستعدت بعض وعيي كي أحاول إيقاف فرانسيس، سمعت جينو يهمس: «ماتت». سمعت الكلمة بوضوح. قالها مرة أخرى وهو ينشج بصوت خافت: «أمي ماتت».

رأيت هناك فوق الجسر رجلاً عجوزاً يستند إلى الدرابزين، كان يلبس قبعة سوداء ويمسك بيده مظلة بألوان قوس قزح مفتوحة فوقه ورأسها المعدني يلمع مثل

نجمة عيد الميلاد. كان العجائز يحبون الفرجة على الأولاد وهم يلعبون في النهر، فهم يعرفون أنهم ما عادوا قادرين على اللعب هكذا البتّة. لوّح له فرانسيس بيده، لم يردّ العجوز. تابع النظر إلينا لحظة قبل أن يتابع طريقه بقبعته السوداء ومظلته الزاهية الألوان. مرّ فرانسيس من أمامي فتراجعت، لكنه لم يكلّف نفسه عناء النظر إليّ ورحل. اقتربت من جينو، كان يبكي على ضفة النهر، رأسه بين ساقيه ينتحب داخل ثيابه المبللة. بدا كل شيء أكثر هدوءاً، كانت المياه تجري أمامنا لا مبالية على نحو متوحش. أردت أن أخفّف عنه فوضعت يدي على كتفه، دفع بي، نهض فجأة وذهب باتجاه الطريق.

بقيت جالساً على حافة المياه. انفتحت أذناي. شيئاً فشيئاً عاد ضجيج السير. أجراس الدراجات الهوائية الصينية، أصوات الأقدام تجرجر صنادلها فوق الأرصفة الترابية المرصوصة، صوت عجلات الحافلات الصغيرة فوق الأسفلت الحار، كان كل شيء يعود إلى الحياة. صار هناك حركة فوق الجسر، تصاعد في داخلي غضب بارد، وكان فمي مدمّى ولدي خدوش في يديّ وركبتيّ، فشطفت جروحي بمياه الموها.

كان الغضب يأمرني بأن أتحدّى الخوف كي يتوقف عن التعاظم، هذا الخوف الذي يجعلني أتخلّى عن أشياء كثيرة. قررت أن أواجه فرانسيس وعدت إلى حديقته لاستعادة عصينا. كان على عتبة الباب وهدّدني عندما اقتربت، لكنني تابعت المسير. كنت أحسّ بطعم الدماء على لساني، طعم مالح. تجمّدت في مكاني وحدّقت مباشرة إلى عينيه لوقت طويل، لم يتحرك وراء ابتسامته المتعجرفة. ظلّ على الدرج الخارجي للبيت. وعندما كان رأسي داخل مياه النهر خفت، لم أعد خائفاً الآن. كان طعم الدم في فمي لا أهمية له، لا شيء أمام دموع جينو. كان يكفي أن أبتلعه حتى أنسى طعمه، لكن دموع جينو؟ جاء الغضب ليحلّ محل الخوف. لم أعد أخاف مما قد يحلّ بي. أخذت سناراتنا وتركت ثمار المانغا ورائي. لن يلتقطها أحد أبداً. كنت

أعرف ذلك، لكن قلّما كان يهمني هذا الأمر. ومع هذا الغضب الذي كان يتنامى في داخلي، لم أكن أعبأ بتاتاً لو تعفنت ثمار المانغا فوق العشب الطريّ.

18

منذ ذلك الحين صار جينو يهرب مني. لم يعلم أرمان والتوأمان بما جرى هناك عند النهر. تركتهم يظنون أننا هربنا مثلهم. كانت دموع جينو قد استولت على أفكاري. هل ماتت أمه حقاً؟ لم أكن أجرؤ على طرح السؤال عليه. ليس بعد. كنا نعيش أياماً متقلبة، الأسابيع شبيهة بسماء موسم الأمطار، يحمل كل يوم نصيبه من الإشاعات والعنف وتعليمات الأمن، أما البلاد فكانت لا تزال دون رئيس، وقسم من الحكومة يعيش في الخفاء، في حين كان الناس في الملاهي يشربون البيرة ويأكلون لحم الماعز المشوي كأنهم يقاومون خوف اليوم التالي.

اجتاحت العاصمة ظاهرة جديدة كنا ندعوها أيام «المدينة الميتة» حيث كانت تُلقى في شوارعها مناشير تتضمن رسائل تدعو الشعب إلى عدم التجوال يوماً أو عدة أيام محدّدة. وعند سريان ذلك، كانت تنزل إلى الشوارع زمر من الشبان بترحيب من قوات حفظ النظام، تقيم الحواجز على المحاور الرئيسة لمختلف الأحياء، تهاجم السيارات وترمي المارة الذين يجرؤون على الخروج من منازلهم بالحجارة. حينذاك، كان الذعر يضرب المدينة فتبقى المخازن مغلقة والمدارس أيضاً، ويختفي الباعة الجوالون، ويعتصم كل واحد في منزله. وفي الأيام التي كانت تعقب أيام الشلل هذه، كانت تُحصى الجثث في أقنية المياه، تُجمع الحجارة عن الأرصفة، وتعود الحياة إلى مجراها

الطبيعي.

أبي الذي كان حائراً، وهو الذي كان يحاول إبعادنا عن السياسة، وجد نفسه غير قادر على إخفاء وضع البلاد عنا. كانت قسماته مشدودة، قلقاً على أولاده وأعماله. فأوقف أعمال ورشاته في داخل البلاد بسبب المجازر التي كانت تتوالى على نطاق واسع، إذ يتحدثون عن خمسين ألف قتيل، كما توجب عليه تسريح عدد كبير من عماله.

في صباح أحد الأيام، بينما كنت في المدرسة، جرى حادث داخل أسوار بيتنا بحضور أبي. اندلعت مشاجرة عنيفة بين بروتيه وإينوسان لم أعرف سببها، لكن إينوسان رفع يده على بروتيه. سرّح والدي إينوسان من عمله على الفور لأنه لم يقبل تقديم اعتذاره وهدّد الجميع.

كان التوتر يجعل الناس عصبيين وحسّاسين تجاه أقل صوت، إذ كانوا في حالة تأهب وحذر. في الشارع كانوا ينظرون إلى مراياهم العاكسة أثناء القيادة للتحقّق من عدم وجود أحد يتبعهم. الكل كان يترصّد. في أحد الأيام، أثناء حصة الجغرافيا، انفجر إطار سيارة وراء سور المدرسة في شارع الاستقلال، ارتمى كل من في الصف بمن فيهم الأستاذ منبطحين تحت المقاعد.

تغيّرت العلاقات في المدرسة بين التلاميذ البوروندييين. كان ذلك خفياً، لكنني كنت قد أدركته تماماً، إذ كان هناك الكثير من التلميحات الغامضة والعبارات المضمرة. وعندما كان يتوجب علينا تشكيل فريق رياضي أو زمر أبحاث، كنا نشعر بالضيق، ولم أكن أستطيع أن أفسّر هذا التحوّل الفجائي، هذا الحرج الواضح.

إلى أن كان ذاك اليوم الذي تشاجر فيه صبيان بورنديان أثناء الاستراحة وراء المظلة الكبرى بمنأى عن أنظار الأساتذة والمراقبين، فانقسم التلاميذ الآخرون الذين أثارت حميتهم المشاجرة سريعاً فريقين، كل فريق يدعم أحد الصبيين. «هوتو قذرون»

يقول بعضهم، «توتسي حثالة»، يردّد بعضهم الآخر.

في بعد ظهر ذاك اليوم، وللمرة الأولى في حياتي، كنت أدخل في عمق واقع تلك البلاد. اكتشفت الصراع بين الهوتو والتوتسي، هو خط فاصل لا يمكن تجاوزه كان يجبر كل شخص على أن يكون من هذا المعسكر أو ذاك. وكان هذا مثل اسم نطلقه على طفل عند ولادته، يولد معه ويلاحقه إلى الأبد. هوتو أو توتسي. أن تكون هذا أو ذاك، طرة أو نقش. وأنا مثل ضرير يستعيد الرؤية، بدأت أعي حينئذ الحركات والنظرات، ما يقال وما لا يقال، والتصرفات وكل ما لم أكن أدركه في الماضي.

الحرب، ودون أن نطلب منها، تتكفّل دائماً في العثور على عدو لنا. أنا الذي كنت أتمنى أن أبقى على الحياد، لم أستطع. ولدت مع هذه القصة، فهي تلتصق بي وأنا أنتمي إليها.

19

اكتشفنا واقعاً أكثر عنفاً من رواندا أيضاً عندما ذهبت في أواخر عطلة شباط/ فبراير مع أمي وآنّا لحضور عرس خالي باسيفيك. كان قد أعلن الخبر قبل أسبوع، لكن فقدان الأمان المتزايد في كيغالي سرّع الأحداث. كان علينا أمي وآنّا وأنا أن نمثّل العائلة، وبقيت جدتي وروزالي في بوجومبورا إذ كان وضعهما كلاجئتين يمنعهما من السفر.

في بهو مطار غريغوار كايبابدا كانت بانتظارنا أوزيبي خالة أمي التي بالكاد تكبرها في السن. كانت قد رفضت المنفى دائماً، وتعتبرها أمي كالأخت الكبرى التي لم تحصل عليها قط. لها البشرة الفاتحة نفسها، وجهها المتطاول يشبه كثيراً وجوه نساء العائلة، جبهتها عريضة ومحدّبة، أذناها صغيرتان، عنقها نحيل، تتناثر بقع النمش فوق أنفها وجفونها، برزت أسنانها قليلاً إلى الأمام عندما ابتسمت سعيدة بلقائنا. كانت ترتدي تنورة سوداء مكسّرة تصل حتى قدميها، في حين كانت حشوة كتفَي سترتها الكبيرة تعطيها مظهر فزاعة طيور وسط حقل. كانت آنّا قد أمضت في الماضي أسبوعاً في ضيافتها، أما أنا فكنت ألتقيها للمرة الأولى، وقد ضمتني بقوة وبتأثر شديد إلى صدرها، وكانت تفوح من جلدها رائحة زبدة الكاريتيه.

تقيم أوزيبي الأرملة في منزل وسط مدينة كيغالي وتسهر على تربية أولادها

الأربعة: ثلاث فتيات وصبي، تراوح أعمارهم ما بين الخمس سنوات والست عشرة سنة: كريستيل، كريستي، كريستيان، كريستين. هرعت بنات الخالة أوزيبي نحو آنّا وما عدن يفارقنها قيد أنملة. عاملنها كضيفة شرف، الدمية التي كنّ يتمنين تدليلها لبضعة أيام، يتشاجرن على مرافقتها ويتضاربن من أجل تمشيط شعرها السبل الغريب جداً بالنسبة إليهن. كنّ قد علّقن فوق جدران غرفتهن صوراً لهن مع آنّا التقطت قبل عام خلال عطلة عيد الميلاد.

كان كريستيان في مثل سنّي وعيناه الضاحكتان تتفرسان بي بمرح. كان ثرثاراً كالتوأمين وعنده فضول لم أرَ مثله قط، يطرح ألف سؤال وسؤال عن بوروندي وعن أصدقائي ورياضتي المفضلة. كان فخوراً لأنه كابتن فريق كرة القدم في مدرسته، وأصرّ على أن يريني الكؤوس والميداليات التي حازها في بطولة المدارس وهي معروضة للعيان فوق صوان الصالون. كان صبره قد بدأ ينفد بسبب اقتراب موعد كأس أمم إفريقيا المقبل الذي كان سينظم في تونس. ولأنّ فريقه الكاميروني المفضل لم يكن قد تأهل، لذلك قرر تشجيع فريق نيجيريا.

حكت لنا الخالة أوزيبي أثناء العشاء الكثير من النكات التي أضحكت أمي بشكل متواصل. كانت تقصّ علينا، بكثير من المرح، قصة العطلة التي قضتها هي وأمي عندما كانتا مراهقتين مع الكشّاف في ريف بوروندي. فتحوّل مآسي عائلتنا ومحنها إلى سلسلة من الحكايا المضحكة والمغامرات الخيالية بتواطؤ وتعاطف مع أولادها. كانوا يصفقون لها، يشجعونها، وأحياناً يكملون الحكاية عنها ويساعدونها للعثور على الكلمات الفرنسية المناسبة. بعد العشاء قالت لنا الخالة أن نتحضّر للنوم، فأذعن الأولاد على الفور في جلبة مرحة. كانت الفتيات في الحمام يستعملن فراشي أسنانهن بمثابة ميكروفونات، يغنين، يرقصن أمام المرآة الكبيرة، في حين كان كريستيان قد ارتدى قميص اللاعب روجيه ميلا عوضاً عن المنامة. وقبل النوم كان يحب أن يلعب بخفة بكرته على جدار غرفته المغطى بصور لاعبي كرة القدم

الكبار. قال لي فيما بعد إنه على ثقة بأن فريقه سيفوز بكأس العالم.

أطفأت الخالة أوزيبي النور، بعد دقيقتين غفا كريتسيان. كنت على وشك النوم بدوري عندما سمعت صوت خالي باسيفيك فهرعت إلى الصالون. توقعت أن أراه بملابسه العسكرية، لكنه كان يرتدي قميص بولو بسيطاً وبنطال جينز وحذاء رياضياً أبيض. رفعني عن الأرض بطرف ذراعه إلى فوق رأسه. «انظروا، ها أنت يا كابي قد أصبحت رجلاً! قريباً سوف تصبح أطول من خالك!». كان لا يزال يحتفظ بوجه ملاك ومشية شاعر طليق، لكن نظرته تغيّرت، أضحت رصينة. كانت الخالة أوزيبي تحمل بيدها سلسلة كبيرة من المفاتيح، منشغلة بإغلاق أبواب المنزل بالأقفال، وعندما عادت من المطبخ أطفأت نور مصباح الصالة. فيما بعد التمعت شعلة ولاعة لبرهة قصيرة وأضاءت شمعة وضعتها على طاولة منخفضة. جلس باسيفيك على أريكة مقابل أمي التي طلبت مني العودة إلى النوم إذ كانوا سيتحدثون حديث بالغين. أذعنت وأنا أجرجر قدميّ، ولكن عوضاً عن العودة إلى السرير، اختبأت في الممر وراء الباب تماماً من حيث أستطيع أن أراقبهم دون أن يروني. عندما جاءت الخالة أوزيبي أخيراً وجلست، استدار باسيفيك نحو أمي:

– أختي الكبرى، شكراً على مجيئك بهذه السرعة. أعتذر على هذه الإجراءات المستعجلة بعض الشيء. لم يكن بوسعي الانتظار بخصوص الزواج. أنت تعرفين أن عائلة جان شديدة التقوى ومتقيدة جداً بالتقاليد وبإتمام الأمور بترتيبها الصحيح، لذلك كان علينا أن نتزوج قبل أن نعلن لهم خبر الطفل. هل تفهمين؟ قال وهو يشدّد على سؤاله بغمزة من عينه.

لم يبدر عن أمي أية ردة فعل لوقت قصير وكأنها كانت تتحقق مما سمعته، ثم أطلقت صيحة فرح قبل أن تضمّ باسيفيك بين ذراعيها. الخالة أوزيبي التي كانت على علم مسبق بالخبر، شعّ وجهها بابتسامة. ثم وبسرعة تخلّص باسيفيك من عناق

أمي، حيث كان مشغول البال فقال لها: «اجلسي من فضلك، يجب أن أحدثك أيضاً». اكفهرّ وجهه وأشار إلى الخالة أوزيبي بحركة من ذقنه فاتجهت على الفور إلى النافذة وألقت نظرة سريعة إلى الخارج قبل أن تغلق حصيرة النافذة وتسحب الستائر. عادت لتجلس بالقرب من باسيفيك، تحت إطار بلاستيكي من طراز الروكوكو في داخله صورة جميلة بالأبيض والأسود مع زوجها وأولادها. في هذه الصورة العتيقة، وبشكل يثير الاستغراب، كانت الوحيدة التي تبتسم، بينما كان بقية أفراد الأسرة عابسين وجامدين أمام عدسة الكاميرا.

قرّب باسيفيك أريكته بحيث لامست ركبتاه ركبتي أمي وبدأ يتكلم بصوت يكاد لا يُسمع.

– إيڤون، عليك أن تصغي إليّ بانتباه. ما سأقوله لك يجب أن يُؤخذ على محمل الجدّ. الوضع أكثر خطورة مما يبدو عليه. عناصر الاستخبارات لدينا التقطوا رسائل تثير القلق وكشفوا عن إشارات تدعونا إلى الاعتقاد أن شيئاً رهيباً يتحضّر حالياً، هنا. الهوتو المتطرفون لا يريدون مشاركة السلطة معنا، نحن جبهة رواندا الشعبية. هم مستعدون لفعل أي شيء في سبيل تقويض اتفاقيات السلام. أنذروا بتصفية كل زعماء المعارضة وكل شخصيات الهوتو المعتدلة في المجتمع المدني. فيما بعد سوف يلتفتون إلى التوتسي... توقف عن الكلام، نظر حوله وهو يصيخ السمع ويرقب أقل نأمة غير طبيعية. في الخارج كان صوت نقيق الضفادع يصل برتابة منتظماً. وعلى الرغم من أن الستائر كانت مسدلة إلا أن نوراً برتقالياً شاحباً صادراً من عمود نور الشارع تمكن من أن يشق طريقه إلى داخل الصالة. استأنف باسيفيك هامساً على الدوام: «نحن نخشى عمليات قتل كبرى في كل أصقاع البلاد، عمليات قتل ستجعل من سابقاتها عمليات تدريب بسيطة».

كان نور الشمعة يعكس ظله على الجدار والعتمة تظلل ملامح وجهه، أما

عيناه فكانتا تبدوان معلقتين في الظلمات.

– وزعوا السواطير في كل المقاطعات. هناك مخابئ كبيرة للأسلحة في كيغالي. الميليشيات تتدرب بدعم من الجيش النظامي، يوزعون لوائح بأسماء الأشخاص الواجب قتلهم في كل حيّ، الأمم المتحدة نفسها تلقت معلومات مؤكدة تفيد بأن السلطات تستطيع قتل ألف شخص من التوتسي كل عشرين دقيقة...

مرت سيارة في الشارع فصمت باسيفيك. انتظر أن تبتعد ثم استأنف هامساً:

– اللائحة أطول مما ينتظرنا. عائلاتنا قتلى مع وقف التنفيذ. الموت يحيق بنا وسوف يضرب بنا ونكون قد وقعنا في الفخ حينذاك.

أمي المضطربة الحائرة، بحثت عن تطمين من الخالة أوزيبي التي بقيت تحدّق بحزن إلى نقطة على الأرض.

– ماذا عن اتفاقات أروشا؟ والحكومة الانتقالية؟ قالت أمي بصوت مذعور. ظننت أن الحرب انتهت وبدأت الأمور تصطلح. هذه المجزرة التي تعلن عنها، كيف يمكن أن تحدث في كيغالي وهناك العديد من أفراد القبعات الزرق؟ هذا ليس معقولاً...

– يكفي أن يُقتل بعضهم حتى يتم إجلاء كل البيض من البلاد. هذا جزء من مخططهم. لن تخاطر القوى العظمى في سبيل أفارقة فقراء، المتطرفون يعرفون ذلك.

– ماذا ننتظر كي نُعلم الصحافة العالمية والسفارات والأمم المتحدة؟

– هم على دراية تامة بالأمر، لديهم المعلومات الاستخبارية نفسها التي لدينا، لن نتوقع شيئاً من جانبهم، دعينا لا نعتمد إلا على أنفسنا. إذا جئت كي أراك الآن، فذلك لأنني بحاجة إلى مساعدتك. أختي الكبرى، بما أنني الرجل الوحيد في عائلتنا، يجدر بي اتخاذ القرار بسرعة. أطلب منك أن تستقبلي عندك في بوجومبورا أولاً

الخالة أوزيبي وكذلك زوجتي المستقبلية والطفل الذي تحمله. سوف يبقون في بوروندي الوقت الضروري ويكونون هناك في أمان.

– ولكن أنت تعرف جيداً أن هناك حرباً في بوروندي أيضاً.

– هنا، سوف تكون أسوأ من حرب.

– متى تريد أن ترسلهم؟ ردّت أمي دون مضيعة للوقت.

– سوف يلحق بكم الجميع في عطلة عيد الفصح حتى لا نثير الشكوك.

– وأنت يا أوزيبي؟ ماذا ستفعلين؟

– سوف أبقى يا إيڤون، يجب أن أستمر في العمل من أجل الأولاد. في غيابهم سوف يقلّ شعوري بالخطر. لا يمكن أن نهرب من كل شيء. على كل حال، سأكون على ما يرام، لا تقلقي، لدي صلات مع الأمم المتحدة في حال حدوث مشاكل سوف أنجح في الفرار.

سمعت صوت محرك أمام المنزل. سارعت أوزيبي إلى النافذة وشقّت الستارة قليلاً. كان أحدهم يرسل إشارات سرية بالأضواء. التفتت إلى باسيفيك وأومأت برأسها. عندما وقف لمحتُ مسدساً محشوراً داخل حزام بنطاله الجينز.

– يجب أن أرحل، إنهم بانتظاري. نلتقي غداً في العرس. خذوا حذركم على الطريق. لا أستطيع السفر معكم إلى جيتاراما، أنا مراقب عن كثب من قبل الاستخبارات ولا أريدهم أن يقوموا بأي مقاربة بيني وبينكم. عائلات جنود جبهة رواندا الشعبية في أعلى قائمة الأشخاص الواجب تصفيتهم. إلى اللقاء غداً في ساعة حفل الزفاف.

ثم انسلّ خارجاً. خرجت من مخبئي وانضممت إلى الخالة أوزيبي أمام النافذة.

ابتعدت دراجة نارية. شاهدنا الأضواء الحمر لمصابيحها الخلفية عندما شدّ السائق على المكابح أمام الحفر الصغيرة. شيئاً فشيئاً خفت صوت الدراجة وتلاشى. أعادت أوزيبي إغلاق الستائر، ثم توقف كل شيء عن الحركة، وكان كل شيء ساكناً في أصقاع العالم كله.

20

أبعدت أنوار الفجر الأولى مخاوف الليل، وأيقظتني ضحكات آنّا وبنات الخالة الآتية من الحديقة. الخالة أوزيبي وأمي لم يغمض لهما جفن، كنت أسمع همسهما يدمدم حتى الفجر. بعد الإفطار مباشرة كنا على الطريق إلى جيتارا. جلست أنا وكريستيان في صندوق السيارة ذات الباب الخلفي فوق الحقائب التي تحتوي ملابسنا من أجل الزفاف. فقد آثرت الخالة أن نرتديها لدى وصولنا كي لا يفتضح أمرنا في حال تفتيش رجال الأمن، في حين كانت الفتيات محشورات بعضهن إلى جانب بعض في المقعد الخلفي، أما أمي التي جلست في المقعد الأمامي فكانت تتبرج أمام مرآة واقية الشمس. في البداية عبرت السيارة أحياء شعبية تعمّ فيها الحركة والزمامير، وبعد عبور محطة النقل العام، صار المشهد أقل فأقل ازدحاماً، وتراجعت المدينة ليحلّ محلها مستنقع قصب البُردي على مدّ النظر. كانت الخالة أوزيبي تقود بسرعة راغبة في الوصول مبكراً إلى جيتارا البعيدة خمسين كيلومتراً عن كيغالي. بقينا لوقت طويل عالقين وراء شاحنة تطلق من عادمها دخاناً أسود كثيفاً ما دعا الفتيات إلى إغلاق النوافذ بسرعة وهنّ يسددن أنوفهن بسبب رائحة البيض الفاسد.

فتحت أمي المذياع وما لبث إيقاع أغنية بابا ويمبا الحماسي أن اجتاح فضاء السيارة. بدأت بنات الخالة يهزهزن، ثم نظر إليّ كريستيان نظرة ماكرة وهو يرفع

حاجبيه ويحرك كتفيه مثل راقص أثيوبي، فسارعت الخالة أوزيبي إلى رفع الصوت. من صندوق السيارة الخلفي، كنت أرى الرؤوس تتمايل ذات اليمين وذات اليسار على وقع الموسيقى، وعند كل لازمة كانت البنات يغنين: « ماريا ڤالانسيا هيه، هيه، هيه!» هذا ما كان يسلّي أمي التي كانت تلتفت لترمقني بغمزات متواطئة. كان على المذياع مذيع مهرّج، يغني مع الموسيقى، لكني لم أكن أفهم سوى بضع كلمات من عباراته الكينية الرواندية: «راديو 106 FM ، راديو سيمبا! بابا ويمبا!» بصوت جذل، كان يعيد لازمة الأغنية، يتكلم، يمزح، شخص غريب الأطوار على الهواء فعلاً. دخلتُ في اللعبة، أنا من كان يكره الرقص، بدأت أتمايل، أصفق كيفما اتفق وأغني: «هيه، هيه، هيه» بحماسة، عندما لاحظت فجأة أنه لم يعد أحد يتحرك. تغيرت أمارات وجوه الأولاد وتجمّد كريستيان، وأطفأت الخالة أوزيبي المذياع بغتة. لم يعد أحد يتكلم داخل السيارة، ومن دون أن أرى وجه أمي شعرت بضيقها. نظرت إلى كريستيان:

– ماذا هناك؟

– لا شيء، حماقات. إنه مذيع الراديو... كان يقول...

– ماذا كان يقول؟

– قال: يجب أن تُباد كل الصراصير.

– الصراصير؟

– نعم الصراصير، «الإينييزي».

– ...

– يستخدمون هذه الكلمة كي يتحدثوا عنّا، نحن التوتسي.

تمهّلت السيارة. كانت العربات أمامنا قد توقفت على أحد الجسور.

– حاجز عسكري! قالت خالتي أوزيبي مذعورة.

عندما وصلنا إلى محاذاة الجنود، أشار أحدهم إلى الخالة كي توقف المحرك وطلب منها بطاقة الهوية. جندي آخر كان يحمل فوق صدره بالورب بندقية كلاشنيكوف، قام بالتفتيش وهو يدور حول السيارة بمظهر من يهدّد. عندما مرّ من أمام الباب الخلفي، ألصق وجهه بزجاج النافذة. أدار كريستيان وجهه كي يتجنب التقاء نظراتهما، وأنا قمت بالمثل. بعد ذلك اقترب الجندي من أمي، نظر إليها بجفاء وطلب أوراقها. أعطته جواز سفرها الفرنسي. ألقى الجندي نظرة خاطفة عليه وقال لها بالفرنسية متهكماً:

– بونجور سيدتي الفرنسية.

راح يقلّب صفحات جواز السفر وهو يبدو مستمتعاً. لم تجرؤ أمي على الكلام. تابع قائلاً:

– مممم... لا أظن أنك فرنسية حقيقية. لم أرَ قط فرنسية لها أنفك، وهذا العنق...

عندئذ وضع يده على عنق أمي فلم تتحرك. كانت قد تيبست من الذعر. من جهتها كانت الخالة أوزيبي لا تزال تفاوض الجندي الآخر وتبذل ما بوسعها كي تخفي اضطرابها.

– نحن ذاهبون إلى جيتاراما لزيارة قريبنا المريض.

نظرتُ إلى الحاجز وراءهما، إلى أسلحتهما على أكتافهما، كنت أسمع صوت صرير حِزامَي بندقيتَيهما، والنهر الأحمر الموحل العالق بين ضفتي حقول البردي

يجري تحت الجسر بدواماته العابرة فوق سطح المياه. كم كان غريباً عليّ أن أفهم تلميحات العسكري والخوف في حركات الخالة أوزيبي وذعر أمي. قبل شهر من الآن، ما كنت لأفهم شيئاً. جنود هوتو في جهة وعائلة من التوتسي في الجهة الأخرى. كنت في الصفوف الأولى أتفرج على مسرحية الكراهية تلك.

– هيا، اغربوا عن وجهي يا زمرة الصراصير! قال الجندي فجأة وهو يرمي بطاقة الهوية في وجه خالتي أوزيبي.

أعاد الجندي الآخر جواز السفر إلى أمي وضغط بوحشية على أنفها بسبابته.

– إلى اللقاء يا أنثى الثعبان! وبما أنك فرنسية، سلّمي لي بإجلال على صديقنا الجدّ ميتيران! قال هازئاً مرة أخرى.

عندما انطلقت الخالة أوزيبي، راح أحد الجنود يركل هيكل السيارة وحطّم الآخر الزجاج الخلفي فانهالت كسرات الزجاج عليّ وعلى كريستيان. أطلقت آنّا صرخة حادة وانطلقت الخالة أوزيبي كالإعصار.

لدى وصولنا إلى بيت جان، كنا لا نزال تحت وقع الصدمة، لكن الخالة أوزيبي طلبت منا ألا نقول شيئاً كي لا نفسد الحفل.

كانت عائلة جان تعيش في بيت متواضع من القرميد الأحمر يحيط به سياج من نبات الفربيون، يقع في أعالي مدينة جيتاراما. كان والداها وإخوتها وأخواتها بانتظارنا، وكان لنا من طقس الاستقبال هذا نصيب كبير من السلامات المنظمة بترتيب للترحيب بنا على طريقتهم الخاصة جداً، يربّتون ظهورنا وأذرعنا، يرافق كل ذلك عبارات تناسب المناسبة. كنت أنا وآنّا تائهين مثل جروين ثقيلي الحركة، غير قادرَين على الرد على أسئلة مضيفينا باللغة الكينيارواندية.

ظهرت جان فجأة بفستان زفافها، ممشوقة القامة، تقارب باسيفيك بالطول

تقريباً، ذات جمال أخاذ. كانت تمسك بيدها باقة أزهار الختمية الوردية، قدّمتها لآنّا. دنت منها أمي بلطف، أخذت وجهها بين يديها وهمست بعض عبارات المباركة في أذنها لترحب بها في عائلتنا.

بعد أن ارتدينا ملابس الاحتفال، ذهبنا إلى مبنى البلدية مشياً على الأقدام. سلكنا طريقاً مختصرة في درب ترابي ضيق يحاذي بيوتاً صغيرة من الطين واللبن تتلاصق في ما بينها. مشيت في مقدمة الموكب مع كريستيان، وكانت جان وأمي تمسك الواحدة بذراع الأخرى خشية الانزلاق. أفضى الدرب في آخره إلى الطريق العام الأسفلتي الذي يوصل إلى بوتار. لدى مرورنا، كان المتسكعون يلتفتون، الدراجات تتوقف، الناس يخرجون من بيوتهم لمراقبتنا بفضول. كانت النظرات ملحة، تخترقنا بكل ما للكلمة من معنى، تشرّحنا في المكان. صار موكبنا الصغير ملهاة المدينة.

كان باسيفيك بانتظارنا في قاعة الاحتفالات يرتدي بذلة تفتقر إلى الترتيب، لكنه كان قد استعاد تعابير وجهه الساذج والطيب. بدا الموظف مستعجلاً، لا بل ثملاً قليلاً. وبصوته الرتيب، ألقى لدقائق طويلة مواد القانون التي تنص على حقوق الزوجين وواجباتهما. كان العدد قليلاً في قاعة البلدية، عائلة الأقرباء فقط. لم يكن أحد يبتسم، وقد لمحت البعض يتثاءب وينظر إلى الخارج حيث أشجار الأوكاليبتوس الباسقة تتمايل تحت الشمس.

لم يخفِ جان وباسيفيك انفعالهما، كانا يبدوان مرحين لأنهما أصبحا الآن زوجين. لم يكفّا عن النظر أحدهما إلى الآخر، يبتسمان للسعادة القادمة، يتلامسان ما إن تسنح لهما الفرصة. قالا: نعم تحت صورة الرئيس، الرئيس نفسه الذي كان باسيفيك يحاربه قبل اتفاقيات السلام.

بعد مراسم الزفاف، صعدنا مجدداً إلى بيت جان حيث كانت السماء غائمة كأن الليل قد حلّ في عز النهار، وهبت رياح عاصفة تحمل معها سُحُباً من الغبار

الأحمر فوق المدينة اقتلعت صفيح أسقف بعض الأكواخ. ارتأت الخالة أوزيبي العودة إلى كيغالي قبل نهاية بعد الظهر، لأن ذلك سيكون أكثر أماناً. لم يلحّ باسيفيك على بقائنا، إذ كان يعرف المخاطر، وسعيداً لأننا تمكنا من المجيء على الرغم من كل شيء.

المطر السريع الذي غسل السماء وأعاد إليها شمسها المفقودة أخّر سفرنا. ثم آن الأوان أخيراً للرحيل. شكرتنا جان وقدمت لكل واحد منا هدية. تلقيت تمثالاً لغوريلا الجبال مصنوعاً من الفخار. لم تترك أمي ذراع جان وهي تردّد على مسمعها كم تستعجل انضمامها إلينا في بوجومبورا لتتعرف إلى العائلة أكثر، ثم دسّت خفية في جيب والد جان العجوز مغلفاً صغيراً يحوي أوراقاً نقدية، فشكرها وهو يرفع قبعة الكاوبوي المضحكة. ابتعدت الخالة أوزيبي مع جان إلى طرف الحديقة وتلت صلوات قصيرة للطفل وهي تضع يديها على أسفل بطن العروس. ودّعَنا الجميع مدهوشين من رحيلنا المبكر، ومن احتفالنا بالعرس سريعاً وخفية تقريباً، وعدت أنا وكريستيان إلى مكانينا في صندوق السيارة، بينما كان باسيفيك يغلق الباب من جهة أمي، انحنى إلى داخل السيارة وقال:

– سوف نحتفل احتفالاً لائقاً بعرس، وسوف أحضر غيتاري حينئذ!

أبدينا جميعاً موافقتنا.

– ولكن ما الذي حدث لزجاج نافذة سيارتك خالتي؟

– آه، لا شيء، حادث صغير دون مخاطر، قالت مراوغة وانطلقت.

ناورت للخروج من الفناء الصغير. وقبل أن نجتاز البوابة، التفتّ كي أقول وداعاً. كان باسيفيك وجان على الدرجة الأولى للسلّم يمسكان بأيدي بعضهما بعضاً بملابس العرس، وراح والد جان في الجانب يلوّح بقبعته فوق رأسه، تقف وراءهم

العائلة ساكنة، فبدا المشهد شبيهاً بلوحة، مع نور بعد الظهيرة الوردي الذي كان ينعكس عليهم. كانت السيارة ترتجّ من اليسار إلى اليمين وتنحدر في الطريق الترابي الصغير على مهل، ثم اختفوا تدريجاً وابتلعهم التلّ.

21

كنت أنهي وظائفي المدرسية فوق زاوية المنضدة. بروتيه شارد في أفكاره يغسل الصحون، والمذياع يبثّ خطاباً للرئيس البوروندي الجديد سيبريان نتاريامیرا العضو في جبهة بوروندي الشعبية، المنتخب من قبل البرلمان بعد أشهر من غياب السلطة.

هذا الصباح، حدثت جريمة قتل في وسط الشارع ليس بعيداً عن المدرسة، فتم إلغاء دوام بعد الظهر. منذ عودتي من رواندا إلى المدرسة، لم أرَ رفقائي في الزقاق، فأغلقت دفاتري وقررت القيام بجولة والذهاب لرؤية جينو كي أضع حداً لهذا الضيق الذي يخيّم بيننا. لم يكن في بيته، لذا ذهبت إلى بيت التوأمين، فوجدتهما مع أرمان مسترخين فوق الأرائك مأخوذين بفيلم كونغ فو. تمددت فوق سجادة الصالة، والصور تعبر ناظري وذهني ساهٍ في مكان آخر. لا بد أنني غفوت طويلاً لأنني عندما فتحت عينيّ كانت أسماء الممثلين تمرّ على الشاشة ببطء. قررنا حينئذ الذهاب إلى مخبئنا كي نلعب الورق. وعندما فتحنا باب السحّاب لسيارة الكومبي الڤولكسڤاكن، فوجئنا بجينو وفرانسيس يتشاركان تدخين سيجارة ولزمني بعض الوقت كي أدرك ما أراه.

– ماذا يفعل هذا هنا؟ سألت ساخطاً.

– اهدأ. عرضت على فرانسيس الانضمام إلى الشلّة. سوف نحتاج إليه لحماية

الزقاق.

كان فرانسيس منبطحاً فوق المقعد بتراخٍ كأنه في بيته، يدخن سيجارة من الجهة المشتعلة. لم يبدر عن أرمان والتوأمين أي رد فعل. عندئذ، صفقت الباب بكل ما أوتيت من قوة لأنني شعرت بالغدر. كنت على وشك الخروج من الأرض البور عندما أمسك جينو بيدي.

– عُد يا كابي! لا تذهب!

– ما بك؟ صرخت وأنا أدفعه إلى الوراء. هذا عدونا اللدود وأنت تريد أن تُدخله إلى مجموعتنا؟

– أسأت الظن به. لم أكن أعرفه حق المعرفة. هو ليس كما تظن.

– وما فعله على النهر؟ هل نسيت؟ كان يريد قتلنا هذا الفاسد!

– إنه نادم، جاء يقرع بابي منذ بضعة أيام كي يعتذر...

– وأنت تصدّقه؟ ألا ترى أن هذا أحد تكتيكاته أيضاً، كما فعل في عيد ميلادي.

– لا، لا كابي، أنت مخطئ. لقد انضبط. تحدثت معه كثيراً. إنه ليس شخصاً سيئاً، هو فقط ليس محظوظاً في حياته. هو أيضاً فقد أمه على كل حال... أنت لا يمكن أن تفهم، أنت لديك أم، ولكن حين تفقد أمك قد يجعلك ذلك مختلفاً لبعض الوقت، قاسياً و...

أخفض جينو رأسه وبدأ يحفر في الأرض بطرف حذائه.

– جينو... كنت أريد أن أقول لك... أنا آسف على أمك، لكنك لم تخبرني قبل ذلك.

– لا أعرف. كما أنها، أنت تعرف، ليست ميتة حقيقة. هذا يصعب شرحه. أنا أتحدث معها، أكتب إليها رسائل، لا بل أسمعها أحياناً. هل تفهم؟ أمي... إنها...إنها في مكان ما...

أردت أن أعانقه وأقول له كلمات تواسيه، لكنني لم أكن أعرف كيف أتصرف، ولم أعرف ماذا يجب أن أقول، لم أعرف ذلك في حياتي قط. كنت أشعر أنني قريب جداً منه ولا أريد أن أفقده. جينو أخي وصديقي ونصفي الثاني. كان يجسّد كل ما أريد أن أكونه، فهو يمتلك القوة والشجاعة اللتين أفتقدهما.

– جينو، هل سأكون صديقك المفضّل دائماً؟

نظر إلى عينيّ ثم اتّجه صوب شجرة أكاسيا ورائي. كسر شوكة ومصّها كي يزيل الغبار عنها قبل أن يخزّها في طرف إصبعه، فظهرت قطرة دم مثل تلك التي نراها عند فحص الدم للكشف عن حمّى المستنقعات. أخذ إحدى أصابعي وغرس الشوكة نفسها حتى أدمى إصبعي، ثم ألصق إصبعينا معاً.

– هذا ردّي على سؤالك يا كابي. أنت أخي بالدم الآن. أحبك أكثر من أي شخص كان.

كان صوته يرتجف قليلاً وأنا بدأت أحسّ بوخز في بلعومي. تجنبنا النظر أحدنا إلى الآخر، إذ كدنا نبكي نحن الاثنين، ثم عدنا إلى سيارة الكومبي يداً بيد.

كان فرانسيس يخوض جدالاً حامياً مع التوأمين وأرمان. هم يصغون إليه بالانتباه نفسه الذي كانوا يولونه منذ بعض الوقت لفيلم الكونغ فو. كان يروي حكاياته بأفضل مما يفعل التوأمان موشيّاً عباراته بكلمات مبتكرة، يمزج السواحلية بالفرنسية بالإنكليزية والكيروندية.

عندما خفّت حرارة الجو في الخارج، اقترحنا عليه المجيء معنا إلى النهر كي

نتبرّد.

– إذا أردتم السباحة، عندي ما هو أفضل من الموها بكثير، اتبعوني! قال فرانسيس.

على الطريق العام، نادى سيارة أجرة زرقاء وبيضاء. بدأ السائق يختلق المشاكل لأنه لا يريد نقل حفنة من الصبيان، لكن فرانسيس وضع أمام عينيه ورقة نقدية من فئة المائة، فانطلق بنا على الفور. لم نصدّق ما جرى، خدعة سحرية حقيقية! أصبحنا فجأة مفعمين بالحماسة من جراء الخروج من الزقاق كلنا معاً. كان التوأمان يردّدان:

– إلى أين نذهب؟ إلى أين نذهب؟ إلى أين نذهب؟

– مفاجأة، كان فرانسيس يردّ بغموض.

كانت تندفع إلى داخل السيارة هبّات رياح ساخنة، أرمان يمدّ يده إلى الخارج عبر النافذة ويلعب بها كأنها طائرة في مهب الريح. كانت الحركة في المدينة مزدحمة، مداخل السوق صاخبة، تتشابك فوق محطة النقل العام الدراجات والحافلات الصغيرة. من كان ليصدّق أن البلاد في حالة حرب! كانت تزيّن شارع «برنس لوي رواغازور» أشجار مانغا مثقلة بالثمار. ضغط جينو على زمور السيارة عندما صادفنا أولاد الحيّ الثاني منهمكين بقطاف المانغا بعصيهم الطويلة، فارتقت سيارة الأجرة مرتفعات المدينة وأصبح الهواء أكثر طراوة. تجاوزنا ضريح الأمير بصليبه الكبير وأقواسه الثلاثة المدببة التي تحمل ألوان العلم الوطني التي يمكن أن تقرأ فوقها بأحرف كبيرة شعار البلاد: «وحدة، عمل، تقدّم». كنا قد أصبحنا في أعالي المدينة بحيث لم نعد نرى الأفق. كان لبوجومبورا شكل كرسي طويل على ضفة المياه، مثل منتجع يمتد على طوله ما بين ذرى المرتفعات وبحيرة تانغانيكا. توقفت السيارة أمام مدرسة «الروح القدس» الشبيهة بعابرة محيطات بيضاء هائلة تطل على المدينة. لم

يسبق لنا أن ذهبنا إلى أعالي المدينة قط. عاد فرنسيس وأعطى السائق ألف ليرة وطلب منه أن ينتظرنا هناك.

حين أصبحنا داخل أسوار المدرسة، بدأت تهطل حبيبات مطر حار تشكّل فوق التراب حفراً بركانية صغيرة تلطخ أرجلنا، وكانت تنبعث من الأرض رائحة التراب المبلل من المطر؛ ركض الطلاب يلتجئون إلى داخل الصفوف والمهاجع، وسرعان ما وجدنا أنفسنا وحيدين في هذا الفناء الكبير الخالي. تابعنا المسير في إثر فرانسيس على طول الممرات. كنت أمشي فاغر الفم تتساقط قطرات المطر فوق لساني ترطب سقف حلقي. وراء جدار قليل الارتفاع، اكتشفنا بركة رائعة، حوض سباحة أولمبياً مع عارضة غطس إسمنتية كبيرة. خلع فرانسيس على الفور ملابسه كلها وسارع إلى الحوض، جينو قام بالمثل. ثم أصبحنا كلنا عراة، حتى أرمان الخجول. رحنا نقارب ركبنا على صدورنا، نتكوّر على أنفسنا ونغطس إلى قاع البركة. كان المطر يهطل على وجه المياه زخات عاصفة تخترقها أشعة شمس خاطفة للحظات. كنّا سعداء وكأننا في اليوم الأول من الوقوع في الحب. وفي نشوة الضحك، كنا نجهد لقطع البركة سباحة، نتسابق بحمق، نشدّ أرجل بعضنا بعضاً، نغرق أنفسنا كي نلهو. جلس فرانسيس على حافة الحوض وراح يقفز خلفياً كي يغطس، فكان الرفقاء مبهورين وجينو أولهم. أمام مهاراته الجسمانية كانت عيناه تلمعان، فشعرت بوخز الغيرة في داخلي.

– هل أنت قادر على الغطس من أعلى العارضة؟ صاح جينو المعجب الولهان.

كان المطر الغزير يسوط وجوهنا. رفع فرانسيس رأسه ثم أجاب:

– هل أنت مجنون؟ هناك أكثر من عشرة أمتار! سوف أُقتل.

لم أتردّد لحظة واحدة. كنت أريد أن أُظهر لجينو أنني أفضل بكثير من

فرانسيس. خرجت من المياه واتجهت بخطى ثابتة نحو السلم الكبير. كانت الدرجات زلِقة والقمة غائبة داخل الضباب. أثناء ارتقائي السلم كانت المياه تنساب على وجهي وتمنعني من أن أفتح عينيّ. رحت أتسلّق بكل ما أوتيت من قوة وأصلّي كي لا أتزحلق في حين كان الآخرون ينظرون إليّ كأنني مجنون. عندما وصلت إلى الأعلى، تقدّمت إلى حافة العارضة. بدا أصدقائي في الأسفل غير معقولين، تطفو رؤوسهم الصغيرة على وجه الماء مثل كرات. لم أشعر بالدوار، لكن قلبي بدأ يضرب بسرعة غير طبيعية. أردت العودة أدراجي، لكنني بدأت أرى منذ الآن ردة فعل فرانسيس تجاهي، سخريته وتهكّمه وهو ينعتني بابن أمه المدلّل، كما أنني سأخيّب أمل جينو ويعود لينحاز إليه من جديد وينتهي به المطاف إلى الاستغناء عني وينسى صداقتنا وميثاق الدم.

من أعلى المرمى، كنت أرى بوجومبورا والسهل الفسيح وجبال زائير الشامخة العريقة في الضفة الأخرى من بحيرة تانغانيكا بمياهها الزرقاء. كنت عارياً فوق مدينتي، يهطل عليّ مطر مداري مثل ستارة ثقيلة يدغدغ جلدي، وتطفو فوق السحب اللدنة انعكاسات فضية لقوس قزح. كنت أسمع صوت رفقائي: «هيا كابي! هيا كابي!» عاد الخوف مجدداً، ذاك الخوف الذي يتسلّى بي ويشلّ حركتي منذ الأزل. أدرت ظهري لحوض السباحة. أصبح عقباي في الفراغ. تبولت على نفسي من الذعر. كان السائل الأصفر الساخن يتدحرج مثل نبات متسلق حول ساقيّ. وكي أمنح نفسي الشجاعة، أطلقت صيحة الهنود الحمر العالية في ضوضاء الشلال. عندئذ، انثنت ساقاي مثل نوابض ودفعت بي إلى الخلف. قام جسمي بشقلبة في الهواء فبدت الحركة رائعة، مضبوطة بقوة غامضة لا أعرف ما هي، ثم سقطتُ ببساطة مثل دمية أراكوز مضحكة. ما عدت أعرف أين كنت عندما فاجأتني المياه واستقبلتني بذراعيها الناعمتين وغمرتني مثل حمّى في حرارة جيشانها وفقاعات الهواء المدغدغة. ولدى وصولي إلى قاع البركة تمدّدت على البلاط كي أتلذّذ بعملي

الباهر.

عندما صعدت إلى السطح كان النصر! هرع رفقائي إليّ وهم يغنّون: «كابي! كابي!» أصبح سطح المياه صاخباً، ورفع جينو ذراعي مثل ملاكم منتصر وقبّل فرانسيس جبيني. كنت أحسّ بأجسادهم تنزلق على جسدي، تلامسه، تشدّه، تعانقه. لقد نجحت! للمرة الثانية في حياتي أتغلب على خوفي اللعين. سوف ينتهي بي المطاف إلى التخلّص من هذا الدرع الشنيع.

جاء حارس المدرسة العجوز يطردنا خارج البركة. التقطنا ثيابنا وركضنا عراة أقفيتنا في الهواء، نضحك حتى انقطعت أنفاسنا. سائق سيارة الأجرة أيضاً شرع يضحك عالياً عندما رآنا نصعد إلى سيارته عراة مثل الديدان. كان الليل قد هبط تحت المطر، وبدأت السيارة تنحدر ببطء، تضيء مصابيحها شوارع حيّ كيريري المتعرجة. وكي نتمكن من رؤية المدينة رحنا نمسح البخار المتشكل على زجاج النوافذ بسراويلنا الداخلية، فبدت بوجومبورا حينذاك مثل غابة من الأنوار، حقلاً من يراعات مضيئة تضيء في غبش السهل. كان جيوفري أوريما يغني في المذياع : «ماكمبو»، كان صوته لحظة من النعمة تذوب مثل قطعة سكر داخل أرواحنا وهذا ما كان يهدّئ هذا الفيض من سعادتنا. لم يسبق لنا أن شعرنا بحرية كهذه قط، كنا أحراراً، أحياء، من رأسنا إلى أخمص أقدامنا، متّحدين، تربط في ما بيننا الشرايين نفسها، يرويها السائل الملذّ نفسه. كنت نادماً على ما ظننته عن فرانسيس، كان مثلنا، مثلي، ولداً عادياً يفعل ما بوسعه في عالم لم يقدّم له الخيار.

كان ينهال على بوجومبورا طوفان حقيقي. تفيض أقنية المياه حاملة معها من أعلى المدينة وحتى البحيرة مياهاً موحلة محمّلة بالقاذورات. لم تعد مسّاحات الزجاج تنفع بشيء، كانت تلهث دون جدوى فوق واجهة السيارة. داخل الليل المظلم، كانت السيارة تجوب الطريق، تلوّن قطرات المطر بالأصفر والأبيض، ونحن في طريق

العودة إلى الزقاق في آخر بعد الظهر المجنون ذاك.

عندما وصلنا إلى جسر موها تراجعت السيارة فجأة. لا أحد كان يتوقع ذلك، اصطدمنا ببعضنا ببعض ونحن نندفع إلى الأمام. اصطدم رأس فرانسيس بلوحة القيادة. وعندما نهض كان يسيل خيط من الدم من أنفه. ريثما استعدنا رباطة جأشنا جمّدنا سلوك السائق. كان مذهولاً، تكزّ يداه على المقود وعيناه المذعورتان تحدقان إلى الطريق وهو يردد قائلاً: «شيطان! شيطان! شيطان!»

أمامنا في الظلام، إلى البعيد قليلاً عن أنوار مصابيح السيارة، شاهدنا مرور خيال حصان أسود.

22

في ذلك الصباح، السابع من نيسان/ أبريل عام 1994، رنّ جرس الهاتف في الفراغ طويلاً في منزلنا. أبي لم يكن في البيت منذ البارحة، وكان عليّ أن أردّ:

– ألو؟

– ألو؟

– هذه أنت ماما؟

– كابي، أعطني أباك.

– إنه ليس هنا.

– ماذا؟

توقفت عن الكلام. كنت أسمع صوت تنفسها.

– أنا قادمة.

مثلما حدث في ثاني يوم للانقلاب، لم يكن هناك أحد في البيت أو في الحديقة، لا بروتيه ولا دوناتيان ولا حتى الحارس الليلي، اختفى الجميع. وصلت أمي على دراجتها النارية على وجه السرعة. كانت لا تزال ترتدي خوذتها على رأسها

عندما صعدت درجات السلم الخارجي بسرعة كي تأخذنا بين ذراعيها أنا وأختي. كانت حركاتها محمومة. أعدّت الشاي في المطبخ ثم جاءت تجلس في الصالة، وهي كانت تمسك فنجانها بيديها الاثنتين وتنفخ على البخار المعطّر العابق منه.

– هل يترككما والدكما وحدكما دائماً هكذا؟

في اللحظة التي كنت أهمّ فيها بالردّ لأقول: لا. كانت آنّا تقول: نعم.

– ليلة الانقلاب لم يكن بابا هنا. سارعت آنّا تقول وكأنها تريد أن تصفّي حساباً.

– السافل! شتمت أمي.

عندما وصل أبي ودخل الصالة لم يقل صباح الخير لأحد. كان يبدو فقط مندهشاً من رؤية أمي تجلس فوق الأريكة.

– ماذا تفعلين هنا إيڤون؟

– ألا تخجل من ترك وَلَدَيك وحدهما طوال الليل.

– آه، فهمت... هل تريدين التحدث في الموضوع حقاً؟ تركتِ منزل الزوجية، أنت بالتأكيد آخر من يحقّ له الكلام والملامة.

أغمضت أمي عينيها، أخفضت رأسها وبدأت تنشق قبل أن تمسح أنفها بكمّ قميصها. كان أبي ينظر إليها بقسوة، مستعداً ليقاتلها. وعندما التفتت إلينا كانت عيناها قد احمرتا من الدموع:

– رئيس بوروندي ورئيس رواندا قتلا الليلة الماضية. هوجمت الطائرة التي كانا فيها فوق كيغالي.

ترك والدي نفسه يتهاوى فوق الأريكة مذهولاً.

– جان وباسيفيك لا يردّان. الخالة أوزيبي أيضاً. أنا بحاجة إلى مساعدتك يا ميشيل.

كان الوضع في بوجومبورا هادئاً على الرغم من إعلان الهجوم وموت الرئيس الجديد. اتصلّ أبي برجال الأمن في السفارة الفرنسية بينما كانت أمي تحاول يائسة الاتصال بعائلتها في رواندا. في نهاية بعد الظهر ردّت الخالة أوزيبي أخيراً، وكان أبي يصغي إلى المحادثة من سماعة الهاتف.

– إيڤون، قالت أوزيبي مذعورة، إيڤون هذه أنت؟ لا، الوضع ليس جيداً على الإطلاق. سمعنا انفجار الطائرة البارحة مساء. بعد دقائق أعلنوا على المذياع موت الرئيس متّهمين التوتسي بأنهم المسؤولون عن الهجوم. تم استدعاء شعب الهوتو إلى حمل السلاح أخذاً للثأر. فهمت أن هذه إشارتهم من أجل إبادتنا. لم يتأخروا في إقامة الحواجز في كل مكان تقريباً. ومنذ ذلك الحين المليشيات والحرس الرئاسي يجوبون المدينة، يمشطون الأحياء، يدخلون إلى بيوت التوتسي والهوتو المعارضين، يذبحون عائلات بكاملها، لا يرحمون أحداً. كان الأمر مروعاً، يا إلهي... شهدنا احتضارهم دون أن نتمكن من فعل شيء. نحن مروَّعون، منبطحون على الأرض داخل المنزل. نسمع العيارات النارية من حولنا. ماذا يمكن أن أفعل بالله عليكِ، أنا بمفردي مع أولادي الأربعة. إيڤون، ماذا سيحدث لنا؟ أتصل بالأمم المتحدة ولا يجيبون. ليس عندي أمل كبير...

كان صوتها لاهثاً وأمي تحاول طمأنتها قدر استطاعتها:

– لا تقولي ذلك أوزيبي! أنا مع ميشيل، سوف نذهب إلى السفارة الفرنسية في كيغالي. لا تقلقي. أنا واثقة من أن باسيفيك في طريقه إليك الآن لأخذكم. إلجئي إلى العائلة المقدسة إذا استطعت. القتلة لا يهاجمون الكنائس. تذكّري حركات ذبح اليهود عامي 1933 و1964، نجونا بهذه الطريقة، إنها أماكن مقدسة لا يجرؤون على

تدنيسها...

– مستحيل، الحيّ محاصر. لا يمكنني المخاطرة والخروج مع الأولاد. اتخذت قراري، سوف أصلّي معهم ثم سأخبئهم في السقف المستعار، فيما بعد سأذهب لطلب المساعدة، لكنني أفضّل أن أقول لك وداعاً الآن. هكذا أفضل. لدينا فرص قليلة للخروج من هنا هذه المرّة. هم يكرهوننا كثيراً، يريدون التخلّص منا مرة واحدة وإلى الأبد. منذ ثلاثين عاماً وهم يتحدثون عن إبادتنا. حانت الساعة بالنسبة إليهم لوضع مشروعهم قيد التنفيذ. لم يعد في قلوبهم رحمة. نحن منذ الآن تحت الأرض. سوف نكون آخر توتسي. من بعدنا، أتوسّل إليك اخلقي بلداً جديداً... يجب أن أنهي المكالمة، وداعاً يا أختي، وداعاً... عيشي من أجلنا... أحمل معي حبك...

عندما وضعت أمي سماعة الهاتف كانت قد تجمدت كالحجر، أسنانها تصطك، ويداها ترتعشان. أخذها أبي بين ذراعيه كي يهدّئها، فتمالكت نفسها سريعاً، وطلبت من أبي أن يعيد الاتصال برقم معيّن ثمّ برقمين آخرين...

خلال أيام وليالٍ تناوبا على الهاتف يحاولان الاتصال بالأمم المتحدة، بالسفارة الفرنسية، البلجيكية، من يردّ عليهما، كان يجيب ببرود:

– لن يتم إجلاء سوى الأجانب.

– ومعهم كلابهم وقططهم! تصر أمي كردّ عليهم وقد خرجت عن طورها.

على مرّ الساعات والأيام والأسابيع، كانت الأنباء تصلنا من رواندا مؤكدة على ما توقعه خالي باسيفيك قبل أسابيع. في كل أصقاع البلاد، كان شعب التوتسي يُذبح وتتم تصفيته ويباد بطريقة منظمة ومنهجية.

لم تعد أمي تأكل أو تنام. في الليل كانت تغادر سريرها خفية، ترفع سماعة الهاتف في الصالة، تدقّ للمرة الألف أرقام جان والخالة أوزيبي. وفي الصباح كنت

أراها غافية على الأريكة، السماعة بالقرب من أذنها والخط يرنّ في الفراغ.

في كل يوم كانت لائحة القتلى تطول، أمست رواندا منطقة صيد واسعة، التوتسي هم الطريدة فيها، كائن بشري مذنب بالولادة لأنه موجود، حشرة طفيلية في نظر القتلة يجب سحقها. كانت أمي تشعر بالعجز، بعدم نفعها. وعلى الرغم من تصميمها والطاقة التي كانت توزعها، لم تتمكن من إنقاذ أحد. كانت تشهد فناء شعبها وعائلتها دون أن تتمكن من فعل شيء لهم. كانت تفقد السيطرة على نفسها، تبتعد عنا، عن ذاتها. كانت تتآكل من الداخل، يذبل وجهها، تحيط بعينيها جيوب ثقيلة وتحفر جبينها الأخاديد.

كانت ستائر المنزل تبقى مسدلة باستمرار، نعيش عكس الضوء، المذياع يلعلع بصوت صاخب في الغرفة الكبيرة المظلمة، يبثّ صرخات اليأس، نداءات الاستغاثة، آلاماً لا تُحتمل وسط أخبار النتائج الرياضية وأسعار البورصة والتحركات السياسية الخجولة التي تدور حول العالم.

دام هذا الشيء الذي لم يكن اسمه حرباً مدة ثلاثة أشهر. لم أعد أذكر ماذا فعلنا أثناء هذه الفترة. لم أعد أذكر المدرسة ولا الرفقاء ولا حياتنا اليومية. في البيت كنا نحن الأربعة من جديد، لكن ثقباً أسود هائلاً ابتلعنا، نحن وذاكرتنا. ما بين نيسان وتموز/أبريل ويوليو من عام 1994، عشنا الإبادة العنصرية التي استمرت في رواندا على مسافة منا، ونحن بين أربعة جدران، بالقرب من الهاتف وجهاز المذياع.

وصلت أول الأخبار في بداية شهر حزيران/يونيو. اتصل باسيفيك إلى بيت أمي. كان على قيد الحياة وليس لديه أخبار عن أحد، لكنه كان يعرف أن جيشه: جبهة رواندا الشعبية سوف يجتاح جيتاراما وقد يكون هو عند جان في غضون أسبوع. منحنا هذا الخبر شيئاً من الأمل، ونجحت أمي في العثور على بعض الأقارب البعيدين وندرة من الأصدقاء. كانت قصصهم مروعة دائماً وبقاؤهم على قيد

الحياة نوعاً من المعجزة.

كانت جبهة رواندا الشعبية تحرز تقدماً على الأرض. القوى الرواندية المسلحة وحكومة الإبادة في طور الهزيمة وقد لاذوا بالفرار من العاصمة. أما الجيش الفرنسي فكان قد أطلق حملة إنسانية واسعة النطاق، أطلق عليها اسم «توركواز»/«فيروز» من أجل إيقاف الإبادة الجماعية وتأمين الأمان لجزء من البلاد. كانت أمي تقول إن هذه آخر الحيَل الدنيئة من فرنسا التي جاءت كي تساعد حلفاءها من الهوتو.

في تموز/ يوليو، وصلت جبهة رواندا الشعبية إلى كيغالي أخيراً. أمي وجدتي وروزالي رحلن إلى رواندا على الفور للبحث عن الخالة أوزيبي وأولادها وجان وباسيفيك والعائلة والأصدقاء. كنّ عائدات إلى وطنهن بعد ثلاثين سنة في المنفى. كنّ يحلمن بهذه العودة، بالأخص العجوز روزالي التي أرادت أن تنهي أيامها على أرض أجدادها، لكن رواندا الحليب والعسل كانت قد اختفت. أضحت منذ الآن قبراً جماعياً مفتوحاً على السماء.

23

شارفت السنة الدراسية على نهايتها، وبدأت في بوجومبورا أولى بوادر الرحيل المتعلقة بالوضع السياسي في البلاد. قرر والد التوأمين العودة إلى فرنسا بشكل نهائي، بين ليلة وضحاها فكان وقع الخبر كالساطور. تودّعنا أمام بوابة منزلهم على عجل. بعد أن غادرت سيارتهم الزقاق داخل غيمة من الغبار، خطر على بال فرانسيس عندئذ أن يستقلّ سيارة أجرة حتى المطار كي يقول لهم وداعاً لآخر مرة. وصلنا إلى هناك قبل أن يصعدوا إلى الطائرة، تبادلنا القبلات وجعلتهما يُقسِمان لي إنهما سيكتبان الرسائل. أقسما: «بحقّ الله!».

ترك التوأمان وراءهما فراغاً. في الفترات الأولى حين كنا نلتقي في سيارة الكومبي القولكسڤاكن المتروكة فوق الأرض البور, كنا نفتقد الضحكات على نكات أرمان وحكايا بعد الظهيرة، غير أن رحيلهما أعطى فسحة أكبر لحضور فرانسيس. جلّ ما كنا نحسن القيام به هو الكلام منذ ذلك الحين وبعد. كنا نقبع جالسين لساعات طوال على مقاعد سيارة الكومبي نصغي لشريط كاسيت قديم لبيتر توش، ندخن السجائر الرخيصة ونمصّ من قنينة البيرة والفانتا التي كان يشتريها لنا فرانسيس من الكشك. وعندما كنت أقترح عليهم جولة لصيد السمك أو السباحة في النهر، أو الذهاب لقطاف المانغا، ما كان الرفقاء يعبأون. أضحت هذه النشاطات

ألعاب أطفال وكنا قد تجاوزنا هذه السن.

– يجب أن نعثر على اسم حقيقي للشلّة، قال جينو.

– ولكن لدينا اسم الآن! «كينانيرا بويز».

ضحك جينو وفرانسيس هازئين ببلاهة.

– هذا الاسم يثير الشفقة!

– أذكّرك أنك أنت من اخترته يا جينو، قلت بانزعاج.

– على كل حال، يجب ألا نقول كلمة «شلّة» بعد الآن. الكل يقول «عصابة» الآن، قال فرانسيس. بوجا مدينة عصابات، مثل لوس أنجلوس أو نيويورك، هناك واحدة في كل حيّ. في بويزا عصابة «لا هزيمة»، في نغاغارا عصابة «لا فشل»، في بويزي عصابة «المرائب الستة»...

– صحيـــح، نعم، هناك أيضاً «شيكاغو بولز» وعصابة «على المكشوف»، قال جينو وكأنه كان يردّد أغنية راب.

– سنكون عصابة «كينانارا»، قال فرانسيس وهو يسحب نفساً من سيجارته. دعوني أشرح لكم كيف سنعمل. للعصابات المسلحة هيكلية مع تراتبية. يستلمون الحواجز أثناء فترة المدن الميتة. كل الناس يحترمونهم، حتى أن العسكريين يتركونهم وشأنهم.

– ولكن هل سنشارك في العصيان المدني يا شباب؟ سأل أرمان.

– يجب حماية الحيّ، ردّ جينو.

– لو خرجت مع أبي في يوم حظر تجوال، فلن يكون هناك ميت سوى المدينة يا صديقي، ابتسم أرمان.

– لا تقلق، سوف نقيم الحواجز فوراً، قال فرانسيس الذي بدأ يحسب نفسه زعيمنا. أريد فقط أن نحسّن علاقتنا مع عصابة «لا هزيمة» التي تسدّ جسر موها. يجب أن نظهر لهم أننا معهم ونمرر لهم يد العون بين الحين والآخر، هكذا سنتمكن من التنقل في الحيّ دون مشاكل، وسوف يحموننا إذا لزم الأمر.

– لا أريد أن أعقد صلة مع هؤلاء القتلة. الشيء الوحيد الذي يحسنون القيام به هو قتل الخدم الفقراء وهم عائدون من عملهم.

– هم يقتلون الهوتو يا كابي، والهوتو يقتلوننا! ردّ جينو. العين بالعين والسن بالسن، هل تعرف؟ لا بل هذا مكتوب في الإنجيل.

– في الإنجيل؟ لم أسمع بذلك في حياتي! أعرف فقط أغنية ندومبولو: «العين بالعين، مائة بالمائة! مائة بالمائة! أوه! أوه! أوه!».

– كفى يا أرمان! أجبته بانزعاج. لا شيء يدعو للضحك.

– هل رأيت ماذا فعلوا بعائلاتنا في رواندا يا كابي؟ أردف جينو. إذا لم نحمِ أنفسنا فهم من سيقتلوننا كما قتلوا أمي.

كان فرانسيس يطلق دوائر من دخان سيجارته فوق رؤوسنا، وتوقف أرمان عن لعب دور المهرج. كنت أودّ أن أقول لجينو إنه على خطأ حين يعمّم، وإذا كنا سننتقم في كل مرة فلن يكون للحرب نهاية، لكنني كنت مشوّشاً بما كشفه توّاً عن أمه. فكرت أن حزنه أقوى بكثير من تعقله. الألم هو ورقة الجوكر في لعبة الجدال فهو يُخضع الحجج الأخرى كلها عند ذكره لأنه ظلم بشكل من الأشكال.

– جينو على حق. لا يمكن لأي شخص أن يكون حيادياً! قال فرانسيس بهيئة السيد العارف بكل الأمور التي كانت تستفزني إلى أقصى الدرجات.

– يمكنك الكلام أنت، أنت زائيري، قال أرمان وهو ينفجر ضاحكاً.

– صحيـــح، أنا زائيري، لكنني زائيري توتسي.

– ولكن، الأمر مختلف!

– يطلقون علينا اسم البانيامولينج.

– لم أسمع بمثل هذا قط، قال أرمان.

– ليس أمامنا خيار، لكل واحد معسكره، قال جينو بابتسامة معادية.

كانت هذه النقاشات، وهذا العنف الذي يستولي على جينو وفرانسيس تحزّ في نفسي، لذلك قررت أن أقلّل من ذهابي إلى مخبئنا، لا بل بدأت أتفادى رفقائي وهذرهم حول الحرب. كنت محتاجاً إلى التنفس وإلى تغيير أفكاري، وللمرة الأولى في حياتي شعرت كأنني في مكان ضيّق في الزقاق، داخل ذاك الفضاء المعزول الذي تدور فيه انشغالاتي ضمن دائرة.

بعد ظهر أحد الأيام، التقيت مصادفة السيدة إيكونوموبولُس أمام سياج زهرة الجهنمية لمنزلها. تبادلنا بعض الكلمات عن موسم الأمطار والطقس الجميل، ثم دعتني للدخول إلى منزلها كي تقدّم لي كوباً من عصير الباربادين[26]. داخل صالونها الكبير، شدّت انتباهي على الفور مكتبة تغطي أحد جدران الغرفة. لم يسبق لي ورأيت هذا القدر من الكتب في مكان واحد، من الأرض وحتى السقف.

– هل قرأتِ هذه الكتب كلها؟ سألت.

– نعم، حتى أنني قرأت بعضها عدة مرات. إنها حب حياتي، فهي تُضحكني وتُبكيني وتجعلني أشكّ وأفكّر وتتيح لي الهروب، لقد غيرتني وجعلت مني شخصاً آخر.

– هل يمكن لكتاب أن يغيّرنا؟

– بالتأكيد، يمكن للكتاب أن يغيّرك! لا بل أن يغيّر حياتك، مثل حب من أول نظرة. ولا يمكن أن تعرف متى سيحدث هذا اللقاء. يجدر بك أن تحذر الكتب، إنها عمالقة نائمة.

كانت أصابعي تجري فوق الكتب، تداعب الأغلفة، أنسجتها التي تختلف بين واحد وآخر، أهمس أسماء العناوين التي أقرأها. كانت السيدة إيكونوموبولُس تراقبني دون أن تقول شيئاً، ولكن حين توقفت بشكل خاص عند أحد الكتب وقد أثارني العنوان، شجعتني قائلة:

– خذه، أنا متيقنة من أنه سيعجبك.

في ذلك المساء وقبل أن أذهب إلى السرير، استعرت مصباح يد من أحد جوارير أبي. تحت أغطيتي، بدأت أقرأ روايتي: قصة صياد عجوز وصبي صغير، سمكة كبيرة وسرب من أسماك القرش... أثناء قراءتي تحول سريري إلى قارب، كنت أسمع صوت تلاطم الأمواج وهي تضرب حوافي فراشي وأحسّ بهواء البحر والريح يدفعان بأشرعة أغطيتي.

في اليوم التالي أعدت الكتاب إلى السيدة إيكونوموبولُس.

– أنهيته بسرعة! أحسنت يا غابرييل! سوف أعيرك واحداً آخر.

في الليلة التالية، كنت أسمع صليل الحديد يتقارع، عدوَ الخيول، حفيف مشالح الفرسان، خشخشة دانتيل فستان الأميرة.

في يوم آخر، أصبحت في غرفة ضيقة، مختبئاً مع مراهقة وعائلتها في مدينة تقع فيها الحرب والدمار. كانت تتركني أقرأ من فوق كتفها الأفكار التي كانت تخبئها في دفتر يومياتها، وهي تتحدث عن مخاوفها وقصص حبها وحياتها السابقة، فشعرت كأنني أنا المعني بالأمر وأستطيع أن أكتب تلك السطور نفسها.

في كل مرة أعيد فيها إليها كتاباً، كانت تسألني السيدة إيكونوموبولُس عن رأيي فيه. كنت أتساءل ما الذي يمكن أن يفيدها ذلك. في البداية، كنت أروي لها القصة باختصار، بعض الأحداث ذات المغزى، أسماء الأماكن والأبطال. كنت ألاحظ أنها مسرورة وأنا من ناحيتي كنت راغباً في أن تعيرني كتاباً آخر من جديد كي أتسلل إلى غرفتي وأقرأه بنهم.

فيما بعد، بدأت أحدّثها عن أحاسيسي، عن الأسئلة التي أطرحها على نفسي ورأيي بالكاتب وبالشخصيات. كنت بهذا الشكل أزيد من الاستمتاع بكتابي وأطيل القصة، واعتدت زيارتها في كل يوم بعد الظهر. وبفضل مطالعاتي، ألغيت حدود الزقاق، صرت أتنفس من جديد، كان العالم يمتد أبعد، إلى ما وراء الأسيجة التي كانت تقوقعنا على ذواتنا وعلى مخاوفنا. ما عدت أذهب إلى مخبئنا، ولم تعد لدي الرغبة في رؤية الأصدقاء وسماع أحاديثهم عن الحرب والمدن الميتة وعن الهوتو والتوتسي. كنت أجلس مع السيدة إيكونوموبولُس في الحديقة تحت شجرة جرنكة الميموزا المزهرة. فوق طاولتها المصنوعة من الحديد المشغول، حيث كانت تقدّم الشاي والبسكويت الساخن ونناقش لساعات، الكتب التي كانت تضعها بين يديّ. بدأت أكتشف موهبتي في التحدث إلى مالا نهاية عن أمور في أعماقي كنت أجهلها. في ذاك الملاذ الأخضر، تعلمت تحديد ميولي ورغباتي وطريقتي في رؤية الكون. كانت السيدة إيكونوموبولُس تمنحني الثقة بالنفس، لا تلقي أحكاماً عليّ البتّة، إذ كان لديها موهبة الإصغاء إلي وطمأنتي. بعد أن نتحدث مطولاً، عند مشارف نهاية بعد الظهر، في نور المغيب، كنا نتسكع في حديقتها مثل عاشقين مضحكين. كان يراودني إحساس أنني أمشي تحت قبة كنيسة وتغريد الطيور فيها همس الصلوات، نتوقف أمام الأوركيد البريّ، نتسلل بين سياج الختمية وغراس التين، كان الجزء المخصص للأزهار في حديقتها وليمة فاخرة لطيور أبو تُمرة ونحل الحيّ. أحياناً، كنت ألتقط ورقة يابسة من تحت الأشجار لأجعلها مؤشر كتاب. نمشي هناك على

مهل، بتؤدة تقريباً، نجرجر أقدامنا في العشب الكثيف وكأننا نريد الإمساك بالزمن بينما يغمر الليل الزقاق رويداً رويداً.

24

عادت أمي من رواندا يوم افتتاح المدرسة. بعد يوم حظر تجوال. وفي الطريق إلى المدرسة، كانت تتناثر هياكل سيارات مفحّمة، أكوام من الحجارة على الرصيف، إطارات متفحمة أو لا تزال تحترق. وعندما ظهرت فجأة جثة على جانب الطريق، أمرنا والدي بأن نشيح أنظارنا.

جمعنا مدير المدرسة مع عناصر من شرطة السفارة الفرنسية تحت المظلة الكبيرة كي يعرضوا علينا تعليمات الأمان الجديدة. كان قد حلّ محل سياج نباتات الجهنمية الكثيفة جدار عال من القرميد لحمايتنا من الرصاص الطائش الذي كان يصل أحياناً ليستقر في قاعات الصفوف.

هيمن على المدينة قلق عميق وراود الكبار شعور بقرب وقوع مخاطر جديدة. كانوا يخشون أن يتردّى الوضع كما حدث في رواندا، لذلك كانت تزداد الحواجز باطراد. كان من نتائج موسم العنف هذا ظهور الأسيجة الشبكية والحرس وأجهزة الإنذار والحواجز وأقواس البوابات والأسوار الشائكة. وأيّ عتاد للأمان كان يقنعنا بإمكانية تفادي العنف وإبقائه بعيداً عنا. كنا نعيش في ذاك الجو الغريب، لا حرب ولا سلم، لم تعد القيم التي اعتدناها هي السائدة، وأمسى الشعور بعدم الأمان أمراً عادياً، شأنه شأن الجوع والعطش والحرّ، وصار الجنون والدم يماشيان حركاتنا

اليومية.

ذات مساء، عند ساعة الذروة، شهدت مقتل رجل أمام مركز البريد. كنت قد نزلت لإحضار الرسائل من علبة بريدنا بينما كان أبي ينتظرني في السيارة. كنت أصلّي كي تكون هناك رسالة من لور. مرّ ثلاثة شبان وهاجموا بغتة رجلاً دون أي سبب واضح، بدأوا يضربونه بالحجارة عند زاوية الشارع. كان هناك رجلا شرطة ينظران إلى المشهد دون أن يحركا ساكناً. توقف المارة لبرهة كأنهم يستمتعون بعرض مجاني، وذهب أحد المهاجمين لإحضار حجر كبير من تحت شجرة العندم الهندي، ذاك الذي يجلس عليه عادة بائعو السجائر والعلكة. كان الرجل يحاول النهوض مجدداً عندما هشّم الحجر الكبير رأسه، تدحرج على طول قامته فوق القار، ارتفع صدره تحت قميصه ثلاث مرات يستنجد الهواء بسرعة، ثم لا شيء. رحل المعتدون مجدداً بهدوء مثلما جاؤوا، واستأنف المارة طريقهم يتجنبون الجثة مثلما يتفادون المخاريط التي تضعها شرطة المرور. كانت المدينة بأسرها تتحرك، تتابع نشاطاتها، تسوّقها، حياتها اليومية. كان السير كثيفاً، الحافلات الصغيرة تطلق أبواقها، الباعة الصغار يعرضون أكياس الفستق السوداني والمياه، والعشاق يأملون في العثور على رسائل حب في علب بريدهم، طفل يشتري ورداً أبيض لأمه المريضة، امرأة تفاوض على سعر علب ربّ البندورة، صبي يخرج من عند الحلّاق قصّ شعره على الموضة، ومنذ لحظات، جاء رجال قتلوا آخرين دون أي عقاب، تحت شمس الظهيرة نفسها، شمس الماضي.

عندما وصل جاك بسيارته ودخل حديقتنا كنا نجلس إلى المائدة. نزلت أمي من سيارة الرانج روڤر حيث كان قد مضى شهران دون أية أخبار عنها. كانت قد هزلت كثيراً ويصعب التعرّف إليها بمئزرها الرثّ، وكانت تبدو كالشبح في قميصها الضارب إلى البني وقدميها الحافيتين تغطيهما الأوساخ، ولم تعد تلك الفتاة المتمدنة الأنيقة ذات الذوق الرفيع التي نعرفها، كانت أشبه بفلاحة ملوثة بالطين عائدة من

حقل الفاصولياء، فاندفعت آنّا إلى أسفل السلّم وقفزت بين ذراعيها، فراحت تتمايل بشدة وأوشكت بالفعل على السقوط على قفاها.

رأيت قسماتها المشدودة، عينيها الصفراوين المحاطتين بدوائر سود، بشرتها الذابلة. كان قميصها المفتوح يظهر صفائح من البثور فوق جلدها. كانت قد أصبحت عجوزاً.

– عثرت على إيڤون في بوكاڤو، قال جاك. كنت في طريقي إلى بوجا والتقيتها مصادفة عند مدخل المدينة.

لم يكن جاك يجرؤ على النظر إليها كأنها كانت تثير اشمئزازه. راح يتحدث كي يتخلّص من حرجه وهو يشرب جرعات من الويسكي، وكانت تظهر فوق جبينه قطرات عرق كبيرة من شدة الحرارة فيجففها بمنديل قماشي سميك.

– في الأوقات العادية عموماً، مدينة بوكاڤو ماخور بديع، ولكن الآن لن تصدّق عينيك يا ميشيل، هذا يفوق التفكير، تحولت إلى مزبلة بشرية. بسطات من البؤس في كل سنتمتر مربع. مائة ألف لاجئ في الشوارع! اختناق تام. لم يعد هناك قطعة من رصيف يمكن أن تمشي عليها، والنزوح مستمر، يصلنا منهم بالآلاف كل يوم. نزف حقيقي. رواندا تتقاطر فوقنا، مليونان بين امرأة وطفل وعجوز وعنزة، عناصر من الميليشيات الإرهابية، ضباط جيش قدامى، وزراء، مصرفيون، كهنة، مقعدون، أبرياء، مذنبون، وغيرهم بالآلاف... كل ما يمكن أن تنجبه البشرية من الناس البسطاء والأوغاد الكبار. تركوا وراءهم كلاباً تأكل الجثث، أبقاراً مبتورة الأطراف ومليون قتيل على سفوح الهضاب وجاؤوا إلى هناك ليتزودوا بالجوع والكوليرا. شيء يدعو للتساؤل: كيف يمكن لمقاطعة كيڤو[27] أن تتخلص من هذه الفوضى اللعينة!

كان بروتيه يقدّم لأمي هريس البطاطا ولحم العجل، عندما سألت آنّا سؤالاً

أثار اضطرابنا كلنا:

– هل عثرتِ على الخالة أوزيبي وأولاد الخالة؟

أشارت أمي ب.«لا» بحركة من رأسها. كانت عيوننا معلّقة على شفتيها، لم تقل شيئاً. أردت طرح السؤال نفسه عن خالي باسيفيك، لكن أبي أشار إلي بيده كي أنتظر قليلاً. كانت أمي تمضغ طعامها مثل عجوز مريض، تأخذ كأس الماء بحركات تعبة وترتشف جرعات قليلة، تدعك فتات الخبز، تصنع منه كريات صغيرة ترتبها بشكل منهجي أمام صحنها. لم تكن تنظر إلينا. وعندما تجشأت بصوت مسموع، توقفنا كلنا عن الطعام ونظرنا إليها، حتى بروتيه الذي كان قد بدأ بإفراغ المائدة. وكأن شيئاً لم يكن، شربت جرعة مياه ثانية ثم التقمت كسرة خبز. هذا السلوك، هذا التصرف، لا يمكن أن تكون هي... كان أبي يريد أن يقيم صلة معها، لكنه لم يكن يعرف كيف يفعل حتى لا يستعجلها ويكون فظاً معها. لم يحتج إلى فعل ذلك، بدأت أمي تتكلم من تلقاء نفسها بصوت هادئ وبطيء، مثلما كانت تفعل حين تحكي لنا الحكايات كي ننام عندما كنا صغاراً.

– وصلت إلى كيغالي في الخامس من تموز/يوليو حيث كانت المدينة قد تحررت على يد جبهة رواندا الشعبية، وكانت أرتال لا نهاية لها من الجثث تغطي الأرض على طول الطريق. كنت أسمع أصوات طلقات متفرقة، رصاص جنود جبهة رواندا الشعبية يقتل قطعان الكلاب التي تتغذى على اللحم البشري منذ ثلاثة أشهر. وبعض من بقين على قيد الحياة، كانوا يهيمون على وجوههم في الشوارع زائغي النظرات. وصلت أمام بوابة بيت الخالة أوزيبي المفتوحة، عندما دخلت أرض الدار أردت الرجوع على عقبيّ بسبب الرائحة، لكنني وجدت الشجاعة للمضيّ قدماً. داخل الصالة، كان هناك ثلاثة أولاد على الأرض. وجدت الجثمان الرابع، جثة كريستيان في الممر بين الغرف، تعرفت إليه لأنه كان يرتدي قميص فريق الكاميرون لكرة

القدم. بحثت عن الخالة أوزيبي في كل مكان، دون أي أثر. في الحي لم يستطع أحد أن يساعدني. كنت وحيدة. كان ينبغي عليّ أن أدفن الأولاد في الحديقة بمفردي. بقيت في البيت لمدة أسبوع وأنا أقول لنفسي إن الخالة أوزيبي لا بد عائدة إلى البيت في نهاية المطاف. عندما لم أرها تعود، قررت الذهاب إلى جيتاراما للقاء جان. عندما وصلت إلى بيتها، كان قد نُهب وما من أثر لجان أو لعائلتها. في اليوم التالي أخبرني أحد جنود الجبهة الشعبية أن باسيفيك في السجن. ذهبت إلى هناك، لكنهم لم يسمحوا لي برؤيته. عدت لثلاثة أيام على التوالي. في صباح اليوم الرابع، أخذني أحد رجال الحرس إلى وراء السجن، إلى أرض ملعب كرة قدم على طرف بستان موز. كان هناك جنود من الجبهة الشعبية يراقبون المكان، وكان باسيفيك ممدّداً على العشب. أطلق عليه الرصاص توّاً. حكى لي الحارس أن باسيفيك لدى وصوله إلى جيتاراما، اكتشف مقتل زوجته وعائلتها في فناء منزلهم. جيرانهم من التوتسي الذين نجحوا في الفرار من المجزرة اتهموا بارتكاب الجريمة زمرة من الهوتو كانت لا تزال في المدينة. عثر عليهم باسيفيك في ساحة مركز المدينة، كانت قبعة والد جان على رأس أحد الرجال، وإحدى النساء ترتدي ثوب جان المزهّر الذي أهداه لها يوم خطبتهما. شعر أخي أنه قد فقد عقله، فأفرغ مشط سلاحه على الأشخاص الأربعة. أُحيل إلى محاكمة عسكرية على الفور، وحُكم عليه بالإعدام. عندما عثرت على جدتي وروزالي في بوتار كذبت عليهما، قلت لهما إنه استشهد في المعركة في سبيلنا، في سبيل عودتنا. ما كانتا لتتقبّلا فكرة قتله على يد خاصتهما. أخبرتنا إحدى معارفنا العائدات من زائير أنها ربما رأت الخالة أوزيبي في أحد المخيمات ناحية بوكافو. حينئذ ذهبت إلى الطريق مرة أخرى وبدأت أبحث عنها لمدة شهر. مشيت ومشيت ومشيت باستمرار إلى مكان أبعد. همت على وجهي في مخيمات اللاجئين. كُدتُ أُقتل عشرات المرات عندما كانوا يكتشفون أنني من التوتسي. لا أعرف بأي معجزة تعرّف إلى جاك على جانب الطريق. كنت قد فقدت كل أمل في العثور على

الخالة أوزيبي.

سكتت أمي. كان أبي قد أغمض عينيه وقلب رأسه إلى الخلف وآنّا في حضنه تشهق باكية. سكب جاك لنفسه كأس ويسكي كبيرة. تأفف: «إفريقيا، أي فوضى أنتِ!».

هرعت إلى غرفتي وأغلقت الباب على نفسي.

25

لكثرة ما مشيت حافي القدمين في الزقاق علق في أسفل قدمي برغوث خاشف. أحضر بروتيه مقعداً صغيراً وضع عليه عقبيّ بينما كان دوناتيان يُحرق طرف إبرة بقداحته:

– لن تبكي يا كابي؟ قال دوناتيان.

– لا، السيد غابرييل رجل الآن! قال بروتيه وهو يسخر مني بلطف.

– برفق يا دوناتيان! صرخت عندما شاهدته يقترب ومعه الإبرة المحمرّة.

أزال اليرقة بلمح البصر. كان الألم قوياً لكنه محتمل.

– انظر إلى حجم الحشرة! سأضع قليلاً من المطهّر وبعدها ستعدني ألا تمشي حافي القدمين بعد الآن، حتى داخل المنزل! مسح دوناتيان قدمي بالمعقّم وتأكد بروتيه من عدم وجود براغيث أخرى. كنت أنظر إلى ذينك الرجلين يعتنيان بي مثل أم حنون. لقد خرّبت الحرب حييهما، لكنهما كانا يأتيان كل يوم إلى العمل تقريباً دون أن يبديا مخاوفهما وقلقهما.

– هل صحيح أن الجيش قتل أناساً من عندكم في كامانج؟ سألت.

أعاد دوناتيان وضع قدميّ على المقعد الصغير بأناة. جاء بروتيه وجلس إلى جانبه، صالب ذراعيه وراقب طيور الحدأة السود تحوم في السماء، وشرع دوناتيان يتكلم بصوت متعب:

– نعم، هكذا حدث. كامانج بؤرة كل العنف في المدينة. ننام كل ليلة على الجمر المستعر، نرى لهيب النيران يرتفع فوق البلاد، لهيباً مرتفعاً جداً يحجب النجوم التي كنا نتأملها ونحبها. وعندما يأتي الصباح نتعجب كيف أننا ما زلنا هناك، نسمع الديك يصيح ونرى النور فوق التلال. حين غادرت زائير لم أكن قد أصبحت رجلاً بعد، تركت أهلي وهربت من قريتنا البائسة. عثرت على ركن سعادتي في بوجومبورا، وصارت هذه المدينة مدينتي. عشت أجمل سنيّ حياتي في كامانج دون أن أعي ذلك، إذ إنني كنت أفكر في اليوم التالي باستمرار على أمل أن يكون الغد أفضل من البارحة. لا تُرى السعادة إلا حين ننظر إلى الوراء. اليوم التالي؟ انظر إليه، إنه هنا، يذبح الآمال، يغيب فيه الأفق، يسحق الأحلام. صليت من أجلنا يا كابي، صليت مرات عديدة كلما استطعت. كلما صليت أكثر، ابتعد الله عنا أكثر وازددت إيماناً بقوته. يجعلنا الله نمر بالتجارب كي نثبت له أننا لا نشك فيه، كأنه يقول لنا إن الحب الكبير مصوغ من الثقة. لا يجدر بنا أن نرتاب في الأشياء الجميلة، حتى تحت سماء العذاب. إذا كنت لا تُدهش بصياح الديك أو من النور فوق القمم، إذا كنت لا تؤمن بطيبة النفس، فلن تسعى عندئذ إلى شيء وكأنك ميت قبل الأوان.

– غداً ستشرق الشمس، وسوف نحاول من جديد. قال بروتيه كي يختم الموضوع.

كنا نحن الثلاثة صامتين، غارقين في أفكارنا الحزينة عندما وصل جينو.

كان متحمساً. سحبني من كرسيي وشرع يركض أمامي، فتبعته وأنا أجر قدميّ دون أن أطرح عليه الأسئلة. صعدت الزقاق بأسرع ما أوتيت من قوة ووصلت إلى

بيته مقطوع الأنفاس تماماً. كان فرانسيس وأرمان جالسين أمام طاولة المطبخ. اتجه فرانسيس إلى الثلاجة، وكنا نسمع صوت طقطقة الآلة الكاتبة الخاصة بوالده في الصالة.

– هيا الآن، افتح الثلاجة، قال جينو وهو ينظر إلي وإلى أرمان.

كان فرانسيس متواطئاً معه، ينظر إلى جينو نظرة تجعلني أخاف الأسوأ. شدّ أرمان على باب الثلاجة، لم أفهم على الفور ما الأمر، ثم أخذت من يده أحد الغرضين.

– اللعنة! قنبلة يدوية!

أعدت وضعها على الفور، أغلقت باب الثلاجة وتراجعت إلى آخر الغرفة.

– خمّن بكم اشترينا القنبلتين؟ قال جينو متحمساً قبل أن يستأنف، دون حتى أن ينتظر جوابي. خمسة آلاف! فرانسيس يعرف شاباً من عصابة «لاهزيمة». شرح له أننا نحن أيضاً نهتم بحيّنا وقدّم لنا سعراً مخفّضاً. عادة هي أغلى بالضعف.

– ولكن سحقاً يا جينو! لديك قنبلتان لعينتان في ثلاجتك! لقد جننت تماماً بشرفي. قال أرمان.

– ما مشكلتك؟ سأل فرانسيس وهو يمسك بياقة قميصه.

– شلّة فاسدين! ردّد أرمان مذعوراً. اشتريتم قنابل يدوية لتضعوها في الثلاجة إلى جانب فتيلة العجل وتسألني ما مشكلتي أنا؟

– اخرس أرمان، قد يسمعنا والدي. هيا بنا إلى المخبأ.

أخرج جينو القنبلتين من الثلاجة وخبأهما داخل كيس بلاستيكي وتسللنا إلى الكومبي ڤولكسڤاكن. عندما أصبحنا داخل السيارة العتيقة، أخرج فرانسيس المتفجرتين

كي يخبئهما في صندوق تحت المقعد الخلفي. وعندما رفع المقعد شاهدت منظاراً مقرباً.

– ماذا يفعل هذا الشيء هنا؟ سألت فرانسيس.

– عندي له زبون. بالمال سنتمكن من الادخار وشراء كلاشنيكوف. سنعثر على واحد مستعمل في سوق «جابيه».

– كلاشنيكوف؟ قال أرمان. لماذا لا نشتري قنبلة ذرية إيرانية؟

– أعرف هذا المنظار، إنه للسيدة إيكونوموبولُس. هل سرقته منها؟

– كفاك إزعاجاً كابي، قال فرانسيس. لا تهمّنا هذه العجوز، حتى أنها لن تنتبّه لفقدانه مع كل قطع الديكور التي تكدّسها في كوخها الصغير.

– يجب أن نعيده إليها فوراً! قلت. هي صديقة ولا أريد أن نسرقها.

– اعفِنا من رقة قلبك، قال جينو. أنت أيضاً سرقتها عندما قطفت المانغا من حديقتها كي تعيد بيعها إليها، أنت أيضاً ضحكت على السيدة اليونانية.

– كان هذا فيما مضى! ثم إن المانغا ليس الشيء نفسه...

أردت أخذ المنظار، لكن جينو دفعني إلى الوراء. عندما أعدت الكرّة، باغتني فرانسيس من الخلف ولوى ذراعي إلى أقصى حد.

– اتركني! لم أعد أريد التسكع معكم في كل الأحوال. ماذا دهاك يا جينو؟ لم أعد أتعرف إليك. هل أنت مدرك لما تفعله؟ ماذا ستصبح؟

كان صوتي يرتجف وأبكي من الحنق. ردّ جينو بضيق:

– إنها الحرب يا كابي، نحن نحمي زقاقنا. إذا لم نفعل ذلك سوف يقتلوننا.

متى ستفهم؟ في أي عالم أنت تعيش؟

– لكننا لسنا سوى زمرة من الأولاد. لا أحد يطلب منا أن نقاتل، أو نسرق، أو أن يكون لدينا أعداء.

– أعداؤنا، ها هم هناك، إنهم الهوتو وهم لا يتردّدون في قتل الأولاد زمرة الوحوش هؤلاء. انظر ماذا فعلوا بأولاد خالتك في رواندا، نحن لسنا في أمان. ينبغي علينا أن نتعلم الدفاع عن أنفسنا والقيام بهجوم مضاد. ماذا ستفعل حين سيدخلون الزقاق؟ هل ستقدم لهم المانغا؟

– لست من الهوتو ولا من التوتسي، أجبت. هذه القصص لا تعنيني. أنتم أصدقائي لأنني أحبكم وليس لأنكم من هذا العرق أو من ذاك. هذا لا يهمني على الإطلاق!

بينما كنا نتشاجر، كنا نسمع في البعيد عند التلال طلقات مدفعية الدبابات AMX-10. تعلمت مع الوقت التعرف إلى نغماتها على سلم الحرب الموسيقية المحيطة بنا. وفي بعض الأمسيات كانت أصوات الأسلحة تختلط بتغريد الطيور وبنداء المؤذن، ويحدث لي أن أجد الروعة في هذا الفضاء الصوتي الغريب ناسياً تماماً من أكون.

26

منذ عودة أمي وهي تقيم في المنزل معنا وتنام في غرفتنا على فراش بالقرب من سريري. كانت تقضي نهارها على الشرفة ونظرتها في الفراغ، لا تريد أن ترى أحداً وليس لديها القوة لاستئناف أي عمل، وكان أبي يقول إنها تحتاج إلى الوقت كي تتعافى من كل ما مرّت به.

في الصباح كانت تستيقظ متأخرة، نسمع المياه تجري في الحمام لساعات ثم تعود لتجلس على أريكة الشرفة وتبقى هناك ساكنة تحدّق إلى عش الدبابير الناشطة في السقف. لو مرّ أحد بالقرب منها كانت تطلب منه زجاجة بيرة فحسب، ترفض تناول طعامها معنا. كانت آنّا تعدّ لها طبقاً تضعه فوق كرسي صغير أمامها، لكنها لم تكن تأكل، بل تنقر الطعام مثل عصفور. وعندما يحلّ الظلام، كانت تبقى وحدها هناك في العتمة، ثم تأتي في وقت متأخر لتنام، بينما نكون قد غفونا كلنا منذ وقت طويل. انتهى بي المطاف إلى قبول حالتها، لم أعد أبحث عن أمي التي كانت في الماضي. الإبادة الجماعية مستنقع أسود، من لم يغرق فيه سيبقى ملوثاً برائحته النتنة إلى الأبد.

أحياناً حين كنت أعود من بيت السيدة إيكونوموبولُس مع كومة من الكتب تحت ذراعي، كنت أجلس بالقرب منها كي أقرأ لها. كنت أحاول العثور على قصص

ليست مرحة جداً يمكن أن تذكّرها بالحياة الجميلة التي فقدناها، ولا شديدة الحزن كي لا أحرّك مشاعرها، وهذا المستنقع من الأقذار الذي كانت تركد في أعماقه. عندما كنت أغلق كتابي، كانت ترمقني بنظرة شاردة وأعرف أنني أصبحت غريباً عنها. حينذاك، كنت أهرب من الشرفة مذعوراً من ذاك الفراغ في أعماق عينيها.

ذات ليلة عندما عادت إلى غرفتنا في وقت متأخر من الليل، أيقظتني بارتطام قدمها بكرسي. رأيت خيالها يتعثر في الظلام، كانت تبحث من جهة آنّا وهي تتلمس حافة السرير. انحنت على أختي وهي تهمس:

– آنّا؟

– نعم ماما.

– هل أنت نائمة يا حبيبتي؟

– نعم كنت نائمة...

كان صوت أمي سلساً كأنها ثملة.

– أنا أحبك يا صغيرتي، هل تعرفين؟

– نعم ماما. أنا أحبك أيضاً.

– فكرت بك عندما كنت هناك. فكرت بك كثيراً يا قلبي الصغير.

– أنا أيضاً يا ماما فكرت بك.

– وبنات خالتك، هل فكرت بهن؟ بنات خالتك اللطيفات اللواتي كنت تلعبين معهن؟

– نعم، فكرت بهن.

– هذا حسن، هذا حسن...

ثم بعد صمت قصير:

– هل تذكرين بنات خالتك؟

– نعم.

– عندما وصلت إلى بيت الخالة أوزيبي، كنّ أول من وقعت عيني عليهن. كنّ ممددات على أرض الصالة منذ ثلاثة أشهر. هل تعرفين ماذا يشبه ذلك؟ جثمان بعد ثلاثة أشهر يا صغيرتي.

– ...

– لا شيء. لا شيء سوى التفسخ. أردت أن أعانقهن، لكنني لم أستطع، كنّ يتحلّلن بين أصابعي. التقطتهن قطعة قطعة. هنّ الآن في الحديقة حيث كنتن تحببن أن تلعبن، تحت الشجرة، شجرة الأرجوحة. هل تذكرينها؟ أجيبيني، قولي لي إنك تذكرينها. قولي لي ذلك.

– نعم ماما، أذكرها.

– ولكن داخل المنزل، ظلّت تلك البقع الأربع على الأرض، بقع كبيرة في المكان الذي كانوا فيه منذ ثلاثة أشهر. بالماء والليفة، فركت وفركت وفركت، لكن البقع بقيت ولم تختفِ. لم يكن هناك مياه كافية، كان عليّ أن أجد المياه في الحيّ، بحثت عندئذ في البيوت التي ما كان يجدر بي الدخول إليها، ثمة أشياء لا يجدر بنا أن نراها في الحياة. كان عليّ أن أنظّف بقليل من الماء. وعندما تمكنت أخيراً من ملء دلو ماء، عدت وتابعت الفرك.

خمشت الأرضية بأظفاري، لكن جلودهن ودماءهن كانت قد اخترقت الإسمنت.

علقت رائحتهن بي. لن تتركني هذه الرائحة بعد الآن. على الرغم من أنني اغتسلت، لكنني قذرة، أشمّ موتهن على الدوام. وتلك البقع في الصالة، إنها كريستيل وكريستي وكريستين. وتلك البقعة في الممر، إنها كريستيان. بصمات أجسادهن. كان عليّ أن أزيلها قبل أن تعود الخالة أوزيبي. لأنك يا صغيرتي، أنت تفهمين. لا تستطيع الأم أن ترى دم أبنائها في بيتها، لذلك كنت أفرك وأفرك تلك البقع التي لن تزول أبداً. بقيت عالقة في الإسمنت، في الحجر، إنها... أحبك يا حبيبتي...

كانت أمي تتابع وهي حانية فوق آنّا تروي لها تلك الحكاية المرعبة بهمس طويل لاهث. سحقتُ الوسادة فوق رأسي. لم أكن أريد أن أعرف شيئاً. أردت أن أتقوقع داخل جحر للفئران، أن ألتجئ إلى داخل كوخ، أن أحتمي من العالم في آخر زقاقي، أن أتيه بين ذكرياتي الجميلة، أن أسكن داخل الروايات الجميلة، أن أعيش في أعماق الكتب.

في صباح اليوم التالي جاءت أشعة الشمس الأولى تضرب زجاج النافذة. لم تكن الساعة قد تجاوزت السادسة، لكن الحرارة كانت فظيعة منذ الصباح، وذلك دليل على اقتراب عاصفة كبيرة أثناء النهار. فتحت عينيّ على صوت تنفس أمي المسموع، كانت ممددة على فراش آنّا وقدماها خارج السرير بردائها الحائل وقميصها البني الباهت. هززت أختي كي أوقظها، كانت منهكة. تهيأنا للذهاب إلى المدرسة بمشقة وصمت. كنت أتصرف وكأنني لم أسمع شيئاً الليلة الماضية، وبقيت أمي نائمة عندما أوصلنا أبي إلى المدرسة.

لدى عودتي وجدتها على الشرفة وأنظارها على عش الدبابير، عيناها حمراوان، شعرها أشعث، فوق المقعد الصغير، تعلو من كأس البيرة أمامها فقاعات صغيرة. سلّمت عليها دون أن أنتظر الرد.

تناولنا العشاء أبكر من المعتاد، وكانت السماء تنذر باقتراب العاصفة؛ الهواء مشبع بالرطوبة والحرارة لا تُحتمل. جلسنا أنا ووالدي بصدرين عاريين. على المائدة بالقرب من طبق الحساء، كنت أسحق البعوض المتخم بالدماء، وكنا نسمع طيران الخفافيش وهي تمر فوق المنزل، إذ كانت قد غادرت أشجار الكوباك العملاقة في وسط المدينة كي تَغيرَ على أشجار البابايا عند ضفاف بحيرة تانغانيكا. كانت آنّا تميل برأسها شبه غافية، منهكة من ليلة البارحة الطويلة، وكنت ألمح وراء زجاج باب الصالة خيال أمي الحزين الساكن فوق أريكة الشرفة.

– كابي، اذهب وأضئ نور النيون على الشرفة، طلب مني والدي.

كانت هذه اللفتات التي يوليها لأمي أحياناً تنزل العزاء إلى قلبي. كان لا يزال يحبها إذاً. ضغطت على مفتاح الكهرباء فسطع النور بسرعة، لكن وجه أمي لاح دون أي تعبير.

أثناء الليل، هبّت العاصفة وراح طوفان من المطر يضرب فوق سطح الصفيح. تحوّل طريق الزقاق المشقّق إلى مستنقع هائل وغمرت المياه الخنادق وقنوات التصريف، وكان البرق يرسم في السماء خطوطاً تضيء غرفتنا وتُظهر شكل أمي فوق سرير آنّا. كانت قد أيقظتها كي تحكي لها مجدداً قصتها عن بقع الدماء على الأرض، بصوت كئيب، أجش، تنبعث من أنفاسها نفحات الكحول فتملأ الغرفة وتصل حتى سريري. وعندما كانت آنّا تتوقف عن الردّ على أسئلتها، كانت ماما تهزّها بعنف قبل أن تعتذر منها وهي تتمتم كلمات لطيفة في أذنها. في تلك الأثناء كان جيش من النمل الطيّار قد خرج من الأرض وراح يخبط بشكل هيستيري حول ضوء النيون الأبيض.

نحن نعيش وهم أموات. لم تكن أمي لتحتمل هذه الفكرة. كانت أقل جنوناً من الناس حولنا. لم أكن حاقداً عليها، لكنني كنت خائفاً على آنّا. صارت كل ليلة تطلب

منها أن تطوف معها في أصقاع كوابيسها، لذلك كان عليّ أن أنقذ آنّا، أن أنقذ أنفسنا. كنت أريد أن تتركنا أمي بسلام، أن أنزع من أذهاننا الأهوال التي عاشتها كي يكون في وسعنا أن نحلم فيما بعد، أن نأمل في الحياة. لم أكن أفهم لماذا كان علينا أن نخضع لكل ذلك نحن أيضاً.

ذهبت أرى والدي وأحكي له. كذبت، بالغت بقسوة أمي كي أحثّه على التحرّك، فخرج عن طوره كالوحش عندما ذهب ليتفاهم معها. تفاقمت حدة النقاش، استعادت أمي بأساً كنا نظنه قد ولّى. تحوّلت إلى حيزبون، علا الزبد فوق زاويتي فمها وخرجت عيناها من محجريهما. كانت عباراتها هذياناً، تشتمنا بكل اللغات، تتّهم الفرنسيين بمسؤوليتهم عن المجزرة. هرعت نحو آنّا، أمسكتها بذراعيها وراحت تهزّها كأنها شجرة نخيل.

– أنت لا تحبين أمك! أنت تفضلين هذين الفرنسيين، قاتلَي عائلتك! حاول أبي أن يخلّص آنّا من مخالب أمي. كانت آنّا مرتعبة، أظفار أمي تنشب في لحمها وتمزّق جلدها.

– ساعدني كابي! صاح أبي.

تجمدت، لم أعد أتحرك. أبعد أبي أصابع أمي واحدة واحدة. عندما تمكن من إفلات قبضتها، استدارت والتقطت عن الطاولة الصغيرة منفضة سجائر ورمتها في وجه آنّا، فانشقّ قوس حاجبها وبدأ الدم يسيل. مرت لحظة ارتباك تشوّش خلالها كل شيء، ثم حمل أبي آنّا إلى السيارة وانطلق إلى الإسعاف. أنا بدوري، فررت وذهبت ألتجئ إلى سيارة الكومبي أنتظر الليل كي أعود إلى البيت. عند عودتي، كانت أمي قد رحلت، اختفت. أمضى أبي وجاك أياماً يجوبون المدينة للعثور عليها، يتصلون بعائلتها، بأصدقائها، بالمشافي، بمراكز الشرطة، بمعارض الجثث، دون جدوى. شعرت بالذنب لأنني أردتها أن ترحل. كنت جباناً وأنانياً في الوقت ذاته، أضع

سعادتي في حصن، وسلامة سريرتي في عقلية ضيقة، كنت أريد أن تتركني الحياة على حالي، دون مسّ، في حين ذهبت أمي مجازفة بحياتها تبحث عن أقربائها عند أبواب الجحيم. كانت لتفعل الشيء نفسه في سبيلي وفي سبيل آنّا دون تردد. كنت مدركاً ذلك وأنا أحبها. الآن وبعد أن اختفت مع جراحها، تركتنا نحن أيضاً مع جراحنا.

27

عزيزي كريستيان:

انتظرتك في عطلة عيد الفصح، كان سريرك جاهزاً بالقرب من سريري. علّقت فوقه صوراً لبعض لاعبي كرة القدم، وأعددت مكاناً في خزانتي كي تضع فيه ملابسك وكرتك. كنت مستعداً لاستقبالك.

لن تأتي.

ثمة أشياء كثيرة لم يتسنّ لي الوقت لأقولها لك. أدركت على سبيل المثال أنني لم أحدثك عن لور. هي خطيبتي، لكنها لم تعرف ذلك بعد. أتوقع أن أطلب منها الزواج قريباً جداً، فور عودة السلام إلى هنا. نتخاطب لور وأنا بالرسائل، رسائل مرسلة بالبريد الجوّي، لقالق من ورق تسافر ما بين إفريقيا وأوروبا. هذه هي المرة الأولى التي أقع فيها بحب فتاة. إنه إحساس غريب، كأنه حمّى في البطن. لا أجرؤ على التحدث عنه إلى رفقائي، لسوف يسخرون مني، وقد يقولون إنني أحب شبحاً، لأنني لم أرَ هذه الفتاة حتى الآن، لكنني لا أحتاج إلى لقائها كي أعرف أنني أحبها. رسائلنا تكفيني.

تأخرت في الكتابة إليك. كنت منشغلاً جداً في الآونة الأخيرة بالبقاء طفلاً.

الرفقاء يشغلون بالي، إنهم يبتعدون عني في كل يوم أكثر. يتشاجرون على قصص الكبار، يخترعون لأنفسهم أعداء وأسباباً للقتال. أفهم الآن أكثر لماذا كان أبي يمنعنا آنّا وأنا من أن نزجّ أنفسنا في السياسة. يبدو لي في هذه الأيام تعباً، أراه شارداً، جاف الطباع. صنع لنفسه درعاً سميكة من الحديد كي يردّ عنه الأذى، بينما في أعماقه أعرفه رقيقاً مثل لبّ ثمرة جوافة مكتملة النضج.

بالنسبة إلى أمي، لم تعد حتى الآن من عندكم، لقد تركت روحها في حديقتكم. تصدّع قلبها وصارت مجنونة، مثل العالم الذي أودى بك.

تأخرت في الكتابة إليك. كنت أستمع إلى مقتطفات من الأصوات التي تقول لي أشياء كثيرة... يقول مذياعي إن فريق نيجيريا_ ذاك الذي تشجّعه_ قد فاز بكأس أمم إفريقيا. وتقول جدتي إن الناس الذين نحبهم لا يموتون طالما نحن مستمرون في التفكير بهم. ويقول أبي: في اليوم الذي سيكفّ البشر فيه عن صنع الحرب، سوف تثلج في المدارَين. السيدة إيكومونوبولُس، تقول إن الكلمة أصدق من الواقع، في حين يقول أستاذي لمادة العلوم: الأرض كروية. ويقول رفقائي: يجب أن نختار معسكرنا. أما أمي فتقول إنك تنام لوقت طويل مرتدياً قميصاً على ظهره شعار فريقك المفضّل.

وأنت يا كريستيان، لن تقول شيئاً بعد الآن.

كابي

28

مستلقية فوق بلاط الشرفة، أوراقها وأقلامها الملونة مبعثرة من حولها، كانت آنّا ترسم مدناً تحترق وجنوداً مسلّحين وسواطير مدمّاة وأعلاماً ممزّقة. تعبق رائحة فطائر الكريب في الجو، بروتيه يطبخ وهو يصغي إلى المذياع بصوت يصمّ الآذان، في حين كان الكلب ينام عند قدميّ باطمئنان، يستيقظ بين الحين والآخر كي يعضعض قائمته بجنون، يحوم حول خطمه ذباب أخضر. أما أنا فكنت أجلس على الشرفة في مكان أمي المفضّل، أقرأ «الطفل والنهر»، وهو كتاب استعرته من السيدة إيكونوموبولُس. سمعت فجأة صوت السلسلة تُنزع عن البوابة الحديدية. عندما وقفت، لمحت خمسة رجال يمشون في الممر. كان مع أحدهم بندقية كلاشنيكوف، طلب منا الخروج من المنزل. كان يعطي أوامره مشيراً بطرف فوهة سلاحه. رفع بروتيه يديه في الهواء، آنّا وأنا حذونا حذوه. طلب منا الرجال أن نجثو على ركبنا ونضع أيادينا خلف رؤوسنا.

– أين سيد البيت؟ سأل الرجل صاحب الكلاشنيكوف.

– مسافر في شمال البلاد لبضعة أيام، قال بروتيه.

– أنت أيها الهوتو، أين تسكن؟ استأنف الرجل موجهاً كلامه إلى بروتيه.

– ضمن هذه الأرض منذ شهر، قال بروتيه. أرسلتُ عائلتي إلى زائير بسبب فقدان الأمان، وأنا أنام هنا.

وأشار إلى كوخ الصفيح الصغير في آخر الحديقة.

– لا نريد أناساً من الهوتو في الحيّ، قال الرجل صاحب الكلاشنيكوف، مفهوم؟ نتركك تعمل هنا في النهار، ولكن في الليل تعود إلى بيتك.

– لا أستطيع العودة إلى حيي يا ريّس، احترق بيتي.

– لا تشتكِ. أنت محظوظ لأنك لا تزال على قيد الحياة. سيدك فرنسي، ومثل كل الفرنسيين يفضّل الهوتو. ولكن هنا ليست رواندا، لا يستطيعون تطبيق قوانينهم، نحن من نقرّر.

تقدّم نحو بروتيه وغرس فوهة بندقيته في فمه.

– إذاً، في نهاية الأسبوع، إما أن تغادر الحيّ وإما نهتم بأمرك. أما بالنسبة إليكما أنتما الاثنين، موجّهاً كلامه إلي وإلى آنّا، قولا لوالدكما بالتأكيد: أنتم الفرنسيين غير مرغوب فيكم هنا في بوروندي. قتلتمونا في رواندا.

قبل أن يسحب سلاحه من فم بروتيه، بصق الرجل علينا، ثم أشار برأسه إلى بقية المجموعة وغادروا الحديقة.

انتظرنا طويلاً قبل أن نعاود النهوض، ثم جلسنا على درجات سلّم المنزل. لم يكن بروتيه يقول شيئاً. كانت نظرته المنكسرة مغروسة في الأرض. عادت آنّا تستأنف الرسم كأن شيئاً لم يكن. وبعد برهة، رفعت رأسها باتجاهي:

– كابي، لماذا اتهمتنا ماما بأننا قتلنا عائلتها في رواندا؟

لم يكن لدي جواب أقدمه إلى أختي الصغرى. لم يكن عندي تفسير لموت

البعض ولكراهية البعض الآخر. الحرب، ربما هي كذلك، ألا نفهم شيئاً.

كنت أحياناً أفكر بلور وأرغب في الكتابة إليها، لكنني سرعان ما أتراجع. لم أكن أعرف ماذا أقول لها، كان يبدو لي كل شيء مشوشاً جداً. كنت أنتظر أن تتحسّن الظروف قليلاً كي أتمكن ربما من أن أحكي لها كل شيء في رسالة طويلة تجعلها تبتسم كما في الماضي، ولكن في الوقت الراهن، البلاد عبارة عن زومبي يمشي مكشوف اللسان فوق الحصى المدببة. أصبحنا نألف فكرة الموت في كل لحظة، فهو لم يعد شيئاً مجرداً وبعيداً، صار له وجه اليوم العادي، فكان، أي هذا الموت يعيش بحذق ويصل إلى تخريب الجانب الطفولي في داخلنا.

ازدادت عمليات «المدينة الميتة» في بوجومبورا. ومن المغيب وحتى الفجر، كانت الانفجارات تدوّي في الحيّ ويصبح لون الليل أحمر من حرائق يتصاعد دخانها كثيفاً فوق التلال. كنا قد اعتدنا فرقعة الأسلحة الأوتوماتيكية ورشقاتها، حتى أصبحنا لا نتكلف عناء النوم في ممرات المنزل. وكان بوسعي وأنا مستلق في سريري أن أتأمل بإعجاب مشهد الرصاص الذي يخترق السماء. ولو حدث ذلك في زمن آخر ومكان آخر لظننت نفسي أرى شهباً.

كنت أجد الهدوء أكثر مدعاة للقلق من صوت الطلقات النارية؛ فالهدوء يحرّض على السلاح الأبيض وعلى دخلاء ليليين لا نشعر بهم وهم قادمون. اندسّ الخوف في النخاع ولم يعد يتحرك. أحياناً كنت أرتجف مثل جرو مبلل يرتعش من البرد وأبقى ملازماً البيت. ما عدت أجرؤ على المغامرة في الزقاق. كان يحدث أن أعبر الشارع بسرعة كبيرة كي أستعير كتاباً جديداً من السيدة إيكونوموبولُس، ثم أعود على الفور كي أتوارى في حضن أوهامي. كنت وأنا في سريري، أبحث في قلب حكاياتي عن وقائع أخرى أكثر احتمالاً، وتعيد الكتب الصديقة رسم أيامي بالنور. كنت أقول لنفسي: لا بد وأن تعبر الحرب ذات يوم بالتأكيد، سوف أرفع بصري عن

صفحاتي وأغادر سريري وغرفتي، وستعود أمي بفستانها المزهّر الجميل، تسند رأسها إلى كتف أبي، وسترسم آنّا منازل من القرميد الأحمر لها مدافئ ترسل دخانها وحدائق مليئة بالأشجار المثمرة وشموس ساطعة كبيرة، وسيأتي الرفقاء لأخذي معهم وننزل إلى نهر موها، كما في الماضي فوق طوف من جذع شجرة موز، نبحر فيه حتى نصل إلى المياه اللازوردية، وننهي النهار على الشاطئ نضحك ونلهو مثل الأطفال.

على الرغم من كل أمنياتي، إلا أن الواقع كان يعاند ويعرقل أحلامي. كان العالم وعنفه يدنوان في كل يوم أكثر. لم يعد زقاقنا الملاذ الآمن الذي تمنيته مذ قرر عدم البقاء على الحياد، وحتى سريري الحصن، انتهى المطاف بالرفقاء وبالآخرين إلى إخراجي من مكمني.

29

المدينة ميتة، العصابات تسدّ المحاور الكبرى، خرج الحقد، بدأ نهار أسود جديد في بوجومبورا، نهار جديد آخر. لقد أُنذر كل فرد بالبقاء في منزله منعزلاً، وكانت الإشاعات تقول إن حدة الغضب قد ازدادت لدى شباب عصابات التوتسي، إذ إن ثواراً من الهوتو قاموا في الأمس بإحراق تلاميذ من التوتسي في محطة وقود داخل البلاد. كانت عصابات التوتسي قد قررت الأخذ بالثأر من كل الهوتو الذين قد يجرؤون على المجازفة بالخروج. كنا نستعد لأيام طويلة من الانتظار، لذلك ذهبت لإحضار مخزوني من الكتب من عند السيدة إيكونوموبولُس.

كنت أصبّ كأساً من اللبن الرائب قبل أن ألوذ بسريري وألتهم حكاياتي عندما سمعت جينو يخرمش باب المطبخ.

– ماذا تفعل هنا؟ من الجنون الخروج اليوم، قلت له هامساً.

– كفّ عن التخويف باستمرار كابي! تعال، لقد حدث شيء خطير.

لم يرغب في قول المزيد، لذلك انتعلت حذائي على وجه السرعة. كنت أسمع ضحكات والدي وآنّا من داخل الصالة وهما يشاهدان الرسوم المتحركة. تسللت إلى الخارج دون ضجيج ومشيت وراء جينو الذي كان منطلقاً كالسهم. سلكنا طريقاً

مختصرة متسلقين السور، ثم قطعنا أرض ملعب كرة القدم للمدرسة العالمية. دخلنا إلى أرض بيت جينو عبر فتحة في شِباك السور وعبرنا الحديقة، فسمعت التكتكة الأبدية لآلة والده الأوليڤيتي. قفزنا من فوق البوابة واتجهنا إلى اليمين نحو آخر الزقاق الذي كان مقفراً، وعبرنا الممشى الخالي من أي روح حيّة. مررنا من أمام الكشك المغلق، ثم من أمام الملهى الليلي، وبعد ذلك مشينا نحو اليسار حتى وصلنا إلى الأرض البور. كانت النباتات قد نمت ولم نعد نرى سيارة الكومبي ڤولكسڤاكن من الطريق.

قبل أن نفتح باب المخبأ راودني إحساس سيئ، شيء ما كان يقول لي أن أعود إلى البيت، إلى كتبي. لم يترك لي جينو الفرصة للإمعان في التفكير، كان قد أزلق باب السيارة.

كان أرمان متهالكاً فوق مقعد الكومبي المغبرّ تغطي ثيابه الدماء، يبكي بكاء يهزّ صدره بقوة، يطلق بين شهقتين حشرجة حادة. كان جينو يعقد حاجبيه ويصرّ على أسنانه، تُحرّك منخريه اختلاجات غضب عارم. «وقع والده في كمين البارحة مساء في الزقاق. عاد أرمان توّاً من المستشفى. مات والده متأثراً بجراحه، انتهى الأمر».

خارت ساقاي وتمسكت ما أمكنني بمسند الرأس لمقعد السيارة وبدأ رأسي يدور. خرج جينو ضائق الصدر من السيارة، راح وجلس فوق دولاب قديم تركد فيه مياه آسنة. خبّأ وجهه بين يديه. وقفت مذهولاً أراقب أرمان ينتحب ودم أبيه يلطّخ ثيابه، أبوه الذي كان يخشاه بقدر ما يجلّه، جاء أناس واغتالوه في زقاقنا، في ملاذنا الآمن، فتبدّد بعض الأمل الباقي لي أدراج الرياح. هذه البلاد فخّ قاتل إذاً. أحسست بنفسي كأنني حيوان مذعور يقف وسط نار الدغل الكبيرة. انكسر آخر الأقفال. ها قد وصلت الحرب واقتحمت بيتنا.

– من فعل ذلك؟

رمقني أرمان بنظرة عدائية.

– أفراد من الهوتو بالتأكيد! من تتوقع أن يكون؟ كانوا قد استعدوا للجريمة. انتظروه عدة ساعات أمام باب المنزل مع سلة خضارهم. ادّعوا أنهم مزارعون من بوغاراما. قتلوه أمام المنزل قبل أن يرحلوا باطمئنان وهم يتمازحون. كنت هناك، رأيت كل شيء.

شرع أرمان يشهق باكياً من جديد. وقف جينو وبدأ يضرب هيكل السيارة بلكمات قوية. كان قد خرج عن طوره فأمسك قضيباً من الحديد ودقّ زجاج السيارة الأمامي والمرآة العاكسة. رحت أنظر إليه يفعل ذلك وأنا مجفل.

وصل فرانسيس كئيب المحيا. كان يضع منديلاً عصبة على طريقة توباك شاكور[28].

– هيا لنذهب. إنهم بانتظارنا.

لحق به أرمان وجينو دون أن يتفوّها بكلمة.

– إلى أين نذهب؟ سألت.

– سوف نحمي حيّنا يا كابي، ردّ أرمان وهو يمسح مخاطه بظاهر يده.

لو كنا في زمن عادي لعدت أدراجي، لكن الحرب كانت قد وصلت إلينا، تهدّدنا بشكل مباشر، نحن وعائلاتنا. بموت والد أرمان، لم يعد لدينا الخيار. كان أرمان وجينو يضعان اللائمة عليّ كثيراً لأنني أردت الاعتقاد بأن هذه المسائل لا تعنيني، لكن الوقائع أعطتهم المبرّر، إذ إن الموت الغادر وصل حتى زقاقنا، ولم تعد هناك أي حرمة على الأرض. كنت أعيش هنا، في هذه المدينة، في هذه البلاد. لم يعد بإمكاني التصرف بشكل آخر. تقدمت نحو الرفقاء.

كان الزقاق هادئاً. لم نكن نسمع سوى صوت طقطقة الحصى تحت أحذيتنا. السكان قابعون في منازلهم مثل علاجيم في حفرها العميقة. لم تهب نسمة واحدة، الطبيعة صامتة. في آخر الشارع، كان هناك سيارة أجرة تنتظر والمحرك يعمل. أشار إلينا فرانسيس أن نصعد. كان السائق يضع نظارة شمسية ولديه ندبة على خده الأيسر، وكان يدخن الحشيش. سلّم عليه أرمان على طريقة الراستاس[29]، القبضة تضرب القبضة. انطلقت السيارة ببطء، لم تسر بضعة أمتار حتى توقفت عند مدخل جسر موها. حيث يوجد الحاجز الرئيسي للحيّ، الذي يتولاه فتيان من عصابة «لا هزيمة». وراء صف من الأسلاك الشائكة التي تسدّ الطريق، كان هناك دواليب تحترق ودخان أسود كثيف يمنعنا من رؤية ما يحدث تماماً وسط الجسر، وزمرة من الفتيان يصيحون منكبين على ضرب جسم أسود هامد على الأرض بمضرب كرة قاعدة وحجارة كبيرة. كانوا يبدون مستمتعين بذلك، ولدى رؤيتنا جاء بعض أفراد العصابة لملاقاتنا. كان فرانسيس ينادي الكل بأسمائهم. تعرّفت إلى الرجل صاحب الكلاشنيكوف، ذاك الذي جاء وصوّبه نحونا في البيت. عندما رآنا جينو وأنا، قال:

– ماذا يفعل هذان الأبيضان اللعينان هنا؟

– كل شيء على ما يرام يا زعيم. إنهما معنا، أمهاتهما من التوتسي. قال فرانسيس.

نظر الرجل إلينا يتفحصنا بنظرة مرتابة ومتردّدة. أعطى بعض التعليمات للآخرين ثم صعد إلى المقعد الخلفي للسيارة إلى جانبنا وبندقية الكلاشنيكوف بين ساقيه، كان يغطي المشط بعض الصور الملصقة: نيلسون مانديلا، مارتن لوثر كينغ، غاندي.

– سِرْ أيها السائق! قال وهو يضرب على الصفيح الخارجي للسيارة. أزال أحد الفتيان الأسلاك الشائكة عن الطريق، وراحت السيارة تسير متعرجة بين الحجارة

المتناثرة فوق الإسفلت وانبعاثات البلاستيك المشتعل توخز أعيننا وتثير السعال. وعندما وصلنا إلى محاذاة الزمرة الهائجة، أعطى رجل الكلاشنيكوف أمره إلى السائق بالتوقف، فتباعد أفراد العصابة جذلين، وسرت في داخلي رعشة. عند أقدامهم، فوق القطران الحار، كان أتيلا يحتضر، حصان عائلة ڤون غوتزن الأسود. كان في المكان نفسه حيث شاهدنا خياله ذات ليلة عاصفة. كان ممدداً على الأرض، محطّم القوائم، تخطّ جسمه الجروح الدامية. كان الشبان قد تفرقوا، رفع الحصان رأسه ونظر ناحيتي يحدّق بإلحاح بعينه الباقية. أخرج رجل الكلاشنيكوف فوهة سلاحه عبر نافذة السيارة فتفرّق الشبّان. صاح: «باسّي! كفى!»، وانطلق سيل الطلقات. أجفلت، تعلّق أرمان بسروالي القصير، وانطلقت السيارة مجدداً تحت أنظار الشباب الخائبة لضياع تسلية نهارهم بهذه السرعة.

في حيّ كابوندو، اتجهت السيارة نحو طريق فرعي وعر يحاذي النهر.

– أنت ابن السفير الذي قُتل توّاً؟ سأل الرجل صاحب الكلاشنيكوف.

أومأ أرمان برأسه دون أن ينظر إليه. وصلت سيارة الأجرة إلى رأس مرتفع يطلّ على النهر، أرضه من الصلصال الأحمر، كانت تحيط بالمكان أشجار كابوكيه عملاقة. نزلنا من السيارة، وكان شبان آخرون من الحي قد وصلوا إلى هناك أيضاً، أبناء عائلات محترمة كنت أحسبهم خلوقين لكنهم كانوا مسلحين بالعصي والحجارة، وكان هناك على الأرض رجل يرقد ضُرب إلى حد فظيع. كان التراب البني يغطي وجهه وثيابه ويمتزج بالدم المتخثّر النازف من جرح في جمجمته.

اقترب الرجل صاحب الكلاشنيكوف، والذي كانوا ينادونه «كلابتون»، أمسك بذراع أرمان وقال له:

– هذا الهوتو هو واحد من قتلة أبيك.

لم يتحرك أرمان. قام كلابتون بضرب الرجل أولاً ثم قام الآخرون بالمثل. كانت الضربات تنهال كالمطر. جينو وفرانسيس المدفوعان إثارة، انخرطا مع سرب العصابة. في اللحظة نفسها وصلت دراجة نارية على جناح السرعة ونزل منها رجلان يلبسان خوذات واقية للوجه.

– وصل الزعيم، قال كلابتون فتوقفت كل العصابة عن الضرب.

استدار فرانسيس ناحيتنا كي يعلن بكل فخر:

– هيه! أيها الصبيان، تماسكوا جيداً، هذا هو زعيم «لا هزيمة» شخصياً! سوف تهلوسون!

رفع راكب الدراجة خوذته وأعطاها إلى السائق. عندما رآني هنا بين شباب عصابته، في عز يوم حظر تجوال، بالقرب من ذاك الرجل الذي يئن على الأرض، تخيلت أنه لم يصدّق عينيه، إنه إينوسان. ابتسم.

– حسناً كابي، أنا مسرور لرؤيتك بيننا.

لم أردّ. كنت واقفاً أصرّ على أسناني وأشدّ على قبضتيّ.

فيما بعد، قام الشبان بتقييد الرجل وهو على الأرض وربطوا ذراعيه وراء ظهره. حاول التخلص قدر استطاعته، كان عليهم الاجتماع عليه كي يفلحوا في تثبيته. في غمرة الفوضى انزلقت من جيبه بطاقة هويته ووقعت فوق التراب. وبعد أن أحكموا وثاقه، حمله الرجال إلى السيارة، وأخذ السائق صاحب الندبة صفيحة بنزين من صندوق السيارة، سكب منها على المقاعد وغطاء المحرك قبل أن يغلق الأبواب. كان الرجل يزعق مذعوراً دون توقف وهو يتوسل إلينا كي نعفو عنه. أخرج إينوسان ولاعته من جيبه. تعرفت إلى ال zippo، ولاعة جاك التي سرقت منه في عيد ميلادي قبل الحرب بزمن قصير، الفضية ذات الأيل المنقوش. مدّ إينوسان الشعلة

نحو أرمان:

– إذا كنت راغباً في الثأر لوالدك...

تراجع أرمان وعلت وجهه تقطيبة مخيفة، كان يقول لا برأسه.

حينئذ اقترب كلابتون:

– أيها الزعيم، من الأفضل أن نترك الفرنسي الصغير يثبت لنا أنه معنا فعلاً.

ابتسم إينوسان مدهوشاً لأن الفكرة لم تخطر على باله هو بالذات. اقترب مني وال. zippo المشتعلة في يده. كان صدغاي يخفقان مثل قلبي بقوة. التفتُّ إلى اليمين، إلى اليسار علّي أجد عوناً. بحثت عن جينو وفرانسيس بين أفراد العصابة. وعندما التقت نظراتنا، شاهدتهما يتقلّدان وجه الموت نفسه الذي يتقلّده الآخرون. أغلق إينوسان يدي على القداحة وأمرني بأن أرميها. كان الرجل داخل السيارة ينظر إليّ بحدّة، وكانت أذناي تطنّان وصار كل شيء مشوشاً. بدأ شباب العصابة يدفعون بي، يضربونني، يصيحون بالقرب من وجهي. كنت أسمع صوتَي جينو وفرانسيس البعيدَين، صراخ الوحوش، رشقات الكراهية المحمومة. كان كلابتون يتحدّث عن أبي وآنّا، بالكاد كنت أميّز تهديداته وسط الدعوات إلى القتل والجلبة المحيطة. علت وجه إينوسان حدّة عصبية وقال إذا لم أنفّذ سوف يذهب بنفسه إلى الزقاق ويهتم بأمر عائلتي. كنت أرى الصورة الهانئة لأبي وآنّا ممددين على السرير أمام التلفاز، صورة براءتهما، براءة كل هذا العالم الذي كان يتخبط في المسير على حافة الهاوية وانتابني شعور بالشفقة حيالهما، حيالي، حيال البراءة المفقودة داخل الخوف الضاري الذي يحوّل كل شيء إلى شرّ، إلى حقد، إلى موت، إلى حمم. كان كل شيء من حولي ضبابياً، الصخب يتضخّم، الرجل في السيارة حصان شبه ميت. إذا لم يكن هناك أي مكان على الأرض له حرمته، فهل ثمّة حرمة هنا؟

ألقيت الولاعة فاشتعلت السيارة. تأججت نارها مثل تلّة، ارتفعت نحو السماء ولامست أغصان الكوباكيه العالية. كان الدخان يتصاعد فوق رؤوس الأشجار وصيحات الرجال تمزّق الهواء. تقيأت على حذائي، سمعت جينو وفرانسيس يهنئانني وهما يربّتان ظهري. كان أرمان يبكي ويبكي، يتكوّر على نفسه مثل جنين في التراب، حتى بعد أن غادر الجميع المنطقة. وجدنا أنفسنا وحيدين أمام البقايا المحترقة، وكان الهدوء يلفّ المكان في شبه سكينة. النهر يجري في الأسفل، كأنّ الليل قد هبط فجأة. ساعدت أرمان على النهوض. كان يجدر بنا العودة إلى منازلنا. وقبل أن أرحل، نبشت التراب والرماد، عثرت على بطاقة هوية الرجل الذي مات توّاً. الرجل الذي قتلته.

30

عزيزتي لور:

لم أعد أستطيع أن أصبح ميكانيكياً. لم يعد هناك شيء يمكن إصلاحه، لا شيء يمكن إنقاذه، لا شيء يمكن فهمه.

ليتها تثلج فوق بوجومبورا لأيام وليال.

ينأى اليمام في سماء بيضاء كالحليب. أولاد الشوارع يزيّنون أشجار المانغا كأشجار الميلاد، بثمار حمر وصفر وخضر. ينزل الفلاحون من التلال المنحدرة إلى السهل، يجتاحون الشوارع الكبرى في زلاقات من أسلاك الحديد أو من الخيزران. بحيرة تانغا حلبة تزلج تنزلق عليها أفراس نهر مهق على بطونها الرخوة.

ليتها تثلج فوق بوجومبورا لأيام وليال.

السحب خراف في مرج لازوردي. ثكنات المشافي فارغة، سجون المدارس مرشوشة بالكلس. المذياع يطلق أغاني طيور نادرة. أخرج الشعب رايته البيضاء وانساق إلى معارك بكرات الثلج فوق حقول القطن. الضحكات ترنّ محدثة انهيارات من السكر الناعم فوق الجبل.

ليسقط الثلج فوق بوجومبورا لأيام وليال.

الظهر مستند إلى حجر ضريح، أتشارك سيجارة مع العجوز روزالي فوق قبرَي ألفونس وباسيفيك. على عمق ست أقدام تحت الجليد، أسمعهما يتلوان قصائد حب للنساء اللواتي لم يتسنّ لهما الوقت لحبهما، يدندنان أغاني مودة للأصدقاء الذين سقطوا في المعركة. بخار أزرق اللون ينطلق من فمي، يتحوّل إلى آلاف الفراشات البيض.

أيام وليال، لتثلج فوق بوجومبورا.

سكارى الملهى الليلي يثملون في عز النهار، يشربون حليباً دافئاً في كؤوس من البورسلين. تمتلئ السماء المترامية بالنجوم، تومض مثل أنوار تايم سكوير[30]، يطير أبواي فوق قمر قربانيّ في عربة تزلج تجرها تماسيح جليدية، ولدى مرورهما، تلقي عليهما آنّا حفنات من أرز كيس الإعانات.

أيام وليال، لتثلج فوق بوجومبورا. هل سبق وقلت لك ذلك؟

تحطّ ندف الثلج برقة على سطح الأشياء، تغطي اللانهائي، تشرّب العالم ببياضها الناصع حتى أعماقنا العاجية. لم يعد هناك جنة ولا جحيم. غداً، سوف تصمت الكلاب وتخمد البراكين والشعب سينتخب بورقة بيضاء. أشباحنا بملابس العرس سترحل في صقيع الشارع الفضيّ. سنصبح خالدين.

منذ أيام وليال تثلج.

بوجومبورا بلا دنس.

كابي

31

اشتدّ وطيس الحرب في بوجومبورا وأصبح عدد الضحايا كبيراً جداً حتى صار الوضع في بوروندي يحتل المقدمة في الأخبار العالمية.

في أحد الصباحات عثر أبي على جثة بروتيه في قناة المياه أمام منزل فرانسيس وقد أوسعوه ضرباً بالحجارة. قال لي جينو إن بروتيه لم يكن سوى خادم ولم يفهم لماذا كنت أبكيه، وعندما هاجم الجيش كامانج، فقدنا أي أثر لدوناتيان. هل قُتل هو أيضاً؟ هل هرب من البلاد مثل كثير من الناس، هل كان يمشي داخل رتل طويل حاملاً فراشه فوق رأسه، رزمة ثيابه في يد وأولاده في اليد الثانية، مجرد نمل صغير ضمن هذه التيارات البشرية السائرة على امتداد طرق ودروب إفريقيا في آخر القرن العشرين؟

وصل أحد الوزراء المرسلين من باريس إلى بوجومبورا مع طيارتين من أجل ترحيل الرعايا الفرنسيين إلى الوطن، وأغلقت المدارس أبوابها. وبين ليلة وضحاها سجّل أبي اسمينا من أجل الرحيل. سوف تستقبلنا إحدى العائلات، آنّا وأنا، في مكان ما في فرنسا، على مسافة تسع ساعات بالطائرة من حيّنا. قبل الرحيل، عدت إلى سيارة الكومبي لاستعادة المنظار للسيدة إيكونوموبولُس. في ساعة الوداع، هرعتْ إلى مكتبتها، مزّقت صفحة من أحد كتبها. كانت قصيدة. كانت تودّ لو أنها نسختها بخط

يدها، ولكن لم يكن قد بقي وقت لنسخ القصائد، كان عليّ الرحيل. طلبتْ مني الاحتفاظ بتلك الكلمات كذكرى منها، وقالت لي إنني سأفهم معناها في وقت لاحق بعد بضع سنوات. حتى بعد أن أغلقت بوابتها الحديدية الثقيلة، بقيت أسمع صوتها تغدق عليّ بنصائح لا تنضب: انتبه من البرد، اسهر على حدائقك السرّية، اغتنِ بمطالعاتك، بلقاءاتك، بعلاقات الحب، لا تنسَ أبداً من أين أتيت...

عندما نغادر مكاناً، نستغرق وقتاً كي نقول وداعاً للناس، للأشياء، للأماكن التي أحببناها. لم أغادر وطني، هربت منه. تركت الباب مفتوحاً على مصراعيه ورائي ورحلت دون أن ألتفت. أتذكر فقط يد أبي الصغيرة تلوّح لي من شرفة مطار بوجومبورا.

أعيش منذ سنوات في بلد يعمّ فيه السلام، في كل مدينة الكثير من المكتبات التي لم يعد أحد يلاحظها. بلد مثل زقاق، أصوات الحرب وجنون العالم يصل إليه من بعيد.

في الليل، تعود إليّ رائحة شوارع طفولتي، إيقاع أوقات بعد الظهيرة الهادئ، صوت المطر المطمئن يضرب سطوح الصفيح. يحدث لي أن أحلم فأرى منزلي الكبير في آخر شارع رومونج، لم يتغيّر. الجدران، الأثاث، أصص الأزهار، كل شيء في مكانه. وداخل هذه الأحلام عن وطن ضائع، أسمع غناء الطواويس في الحديقة ونداء المؤذن في البعيد.

في الشتاء أراقب بحزن شجرة الكستناء العارية في الحديقة الصغيرة أسفل عمارتي. أتخيّل مكانها القبّة الهائلة لأشجار المانغا التي كانت تنعش حيي. عندما يصيبني الأرق، أفتح صندوقاً خشبياً صغيراً مخبأً تحت السرير، فتغمرني عطور الذكريات وأنا أنظر إلى صور الخال ألفونس والخال باسيفيك، وهذه الصورة لي على

شجرة التقطها والدي في يوم رأس السنة، هذا الجعل الأبيض والأسود الذي التقطته من غابة كابيرا، رسائل لور المعطّرة، أوراق انتخابات عام 1993 التي جمعتها عن العشب مع آنّا، بطاقة هوية ملطخة بالدماء... ألفّ بين أصابعي جديلة من شعر أمي وأنا أعيد قراءة قصيدة جاك رومان التي أهدتني إياها السيدة إيكونوموبولُس يوم رحيلي: «إذا كنا من وطن، وطن ولدنا فيه، كأننا نقول: الوطن في عيوننا، في جلدنا، في أيادينا، بضفائر أشجاره ولحم ترابه وعظام حجارته ودم أنهاره، بسمائه ومذاقه ورجاله ونسائه...».

أتهادى بين ضفتين، روحي مريضة بذاك المرض. آلاف الكيلومترات تفرّقني عن حياتي الماضية. ليست المسافة الأرضية هي التي تجعل الرحلة طويلة، إنما الزمن الذي سرى. جئت من مكان تحيط بي فيه عائلة وأصدقاء ومعارف ودفء، وعثرت على مكان، لكنه خال من الذين يملأونه، يمنحونه الحياة، يمنحونه اللحم والدم. تتوضّع ذكرياتي فوق ما أراه أمامي دون جدوى. كنت أحسب نفسي منفياً عن وطني، ولدى عودتي إلى أطلال الماضي، أدركت أنني كنت كذلك في طفولتي وهذا ما كان أكثر قسوة عليّ.

بعد عشرين عاماً عدت إلى الزقاق. لقد تغيّر، وقُطعت أشجار الحيّ الكبيرة، الشمس تسحق النُهُر، وحلّت محل أسيجة نبات الجهنمية الملونة جدران من البلوك الإسمنتي تعلوها كسرات الزجاج والأسلاك الشائكة. لم يعد الزقاق أكثر من ممر مغبر كئيب، سكانه غرباء، يتجاورون منعزلين. وحده أرمان مازال يعيش هناك في المنزل العائلي الكبير ذي القرميد الأبيض في آخر الزقاق. أمه وأخواته تفرّقن في أصقاع الأرض الأربع، من كندا إلى السويد مروراً ببلجيكا. عندما سألته: «لماذا لم

تلحق بهنّ؟» أجاب بحسّه الفكاهي الأسطوري: «لكل واحد منفاه! السياسي لهؤلاء الذين رحلوا، والنفسي لأولئك الذين بقوا».

أرمان موظف إداريّ في مصرف تجاري، أصبح رجلاً مرح الطباع وصار لديه كرش ومسؤوليات. مساء عودتي ألحّ كي يأخذني إلى ملهى الزقاق. «سنذهب إلى الأماكن الفرعية لاحقاً، أريدك أن تغطس مباشرة في واقع البلد». كان الكوخ لا يزال هناك مع شجرة العندم الهندي التي يبست أمامه وكان القمر يلقي بظلاله فوق الأرض الترابية المرصوصة، وأزهار الفتنة الصغيرة تتحرك برخاوة في نسائم الليل. يستقبل الملهى كمّاً من الثرثارين والصامتين المتخمين بالرتابة وبخيبات الأمل. في عتمة الماضي نفسها، كان الزبائن يُفرغون قلوبهم وزجاجاتهم. جلست على صندوق بيرة إلى جانب أرمان، فزوّدني بأخبار غامضة عن فرانسيس الذي أصبح راعي أبرشية كنيسة إنجيلية. التوأمان وجينو؟ في مكان ما من أوروبا، لكنه لا يحاول العثور عليهم، ولا عليّ أيضاً. ما نفع ذلك؟

كان يلحّ عليّ أن أحكي له عن حياتنا آنّا وأنا بعد وصولنا إلى فرنسا. لم أجرؤ على الشكوى وأنا أتخيّل ما يمكن أن يكون قد مرّ به خلال خمسة عشر عاماً من الحرب التي أعقبت رحيلنا. أفشيت له فقط بسرّ: لم تعد أختي تريد أن تسمع أحداً البتّة يتحدث عن بوروندي. صمتنا. أشعلت سيجارة. أضاءت الشعلة وجهينا بلون قرمزي خاطف. مضت السنون، كنا نتحاشى بعض المواضيع، كموت أبي الذي وقع في كمين على طريق بوجاراما بعد أيام قليلة على رحيلنا. لم نتحدث أيضاً عن مقتل والده وكل ما جرى فيما بعد، إذ إن بعض الجراح لا تشفى أبداً.

في عتمة الملهى، راودني إحساس أنني أقوم برحلة إلى الوراء؛ فالزبائن يتحدثون الأحاديث نفسها، الآمال نفسها، وكذلك هذيانات الماضي. كانوا يتحدثون عن انتخابات يتم التحضير لها، عن اتفاقات سلام، عن الخوف من حرب أهلية

جديدة، عن غرامياتهم الخائبة، عن ارتفاع سعر السكر والفحم. الشيء الوحيد الجديد: كنت أسمع بين الحين والحين رنّة جوال تذكّرني أن الزمن تغيّر بشكل ما. فتح أرمان الزجاجة الرابعة. كنا نضحك تحت قمر أحمر صدئ ونستعيد ذكرى حماقات طفولتنا وأيامنا السعيدة. استعدت شيئاً من هذا البوروندي الأبدي الذي كنت أظنه قد ضاع، وغمرني شعور مريح بالعودة إلى الوطن. في هذه العتمة الغارقة بحفيف الزبائن وهمساتهم، كنت أجد صعوبة في سماع صوت واهٍ غريب في البعيد، ذكرى واهية مدوية تتسلل إلى داخلي. هل كان هذا مفعول الكحول؟ ركّزت على الصوت أكثر. اختفى إيحاء الصوت. فتحت زجاجة بيرة جديدة. يسألني أرمان لماذا عدت. حدثته عن المكالمة التي تلقيتها قبل بضعة أشهر يوم عيد ميلادي يخبرونني أن السيدة إيكونوموبولُس ماتت. كانت قد أطلقت أنفاسها الأخيرة أثناء قيلولتها، ذات بعد ظهيرة خريفية، أمام بحر إيجة وعلى ركبتيها رواية. هل كانت تحلم بأزهار حديقتها في بوجومبورا؟

«عدت لاستلام رزم الكتب التي تركتها لي هنا في بوجومبورا». «عدت من أجل كومة من الكتب إذاً!»، انفجر أرمان بالضحك، وأنا ضحكت مثله، وللمرة الأولى تبدّت لي سخافة مشروعي. استأنفنا أحاديثنا. فحدثني عن الانقلاب الذي أعقب رحيلنا، عن الخطر الذي خضعت له البلاد، عن سنوات الحرب الطويلة، عن حديثي النعمة والمافيات المحلية، عن وسائل الإعلام المستقلة، عن المنظمات غير الحكومية التي توظّف نصف المدينة، عن الكنائس الإنجيلية التي تزدهر في كل مكان، عن الصراع العرقي الذي اختفى تدريجاً عن الساحة السياسية. عاد الصوت يدندن مجدداً في أذني. أمسكت ذراع أرمان وتمتمت: «هل تسمع... « عضضت على شفتيّ. كنت أرتجف. وضع أرمان يده على كتفي. «كابي، لم أكن أعرف كيف سأخبرك. فضّلت أن تكتشف هذا بنفسك. إنها تأتي إلى هنا كل مساء منذ سنين... « صوتها، صوت قادم من وراء القبر يخترق عظامي، يهمس قصة بقع على

الأرض، بقع لا تزول. دفعت بخيالات، تعثرت بصناديق البيرة، تلمّست في الظلام واقتربت إلى آخر الكوخ. كانت تتقوقع على نفسها على الأرض في زاوية الغرفة، تمصّ بالقشة كحولاً صناعياً. عثرت عليها بعد عشرين عاماً تُحسب خمسين فوق جسدها الذي يصعب التعرف إليه. انحنيت فوق السيدة العجوز. راودني إحساس أنها تعرفت إليّ من الطريقة التي كانت تنظر فيها إلى وجهي محدّقة إلى نور الولاعة التي قربتها من وجهها. وبحنان لا يوصف، وضعت أمي يدها برقة على خدّي: «كريستيان، هذا أنت؟»

ما زلت أجهل ماذا سأفعل في حياتي. حالياً أنوي البقاء هنا، أعتني بأمي، أنتظر أن تتحسّن حالها.

يطلع النهار ولدي رغبة في الكتابة. لا أعرف كيف ستنتهي هذه القصة، لكنني أتذكّر كيف بدأ كل شيء.

Notes

[1 ←]
بوروندي: جمهورية تقع في منطقة البحيرات العظمى شرق القارّة الإفريقية تحدّها رواندا من الشمال، وتنزانيا من الشرق والجنوب وجمهورية الكونغو من الغرب، عاصمتها بوجومبورا.

[2 ←]
رواندا: بلد يقع في منطقة البحيرات العظمى شرق القارة الإفريقية شمال بوروندي، أراضيه خضراء جبلية يضمّ محمية طبيعية تعيش فيها الغوريلا وقرود ذهبية، وفيها العديد من الغابات المطرية التي تحوي الكثير من الحيوانات المتنوعة. عاصمتها كيغالي.

[3 ←]
هي في الأصل: مسرحية سيرانو دي برجراك للشاعر الفرنسي الشهير إدموند روستان ترجمها للعربية الأديب والكاتب المصري مصطفى لطفي المنفلوطي.

[4 ←]
سايكيديليك روك،: Psychedelic rock نوع من موسيقى الروك كما يشير اسمها فيها تقنيات تحاكي الشعور المرافق لتناول عقار ل.سي.دي المخدر المسبب للهلوسة.

[5 ←]
بومرانغ: أداة ملوية ومنبسطة تستعمل سلاحاً أو يرمى بها في الرياضة، تدور بسرعة عند رميها بطريقة مسطحة وترتد على راميها في النهاية.

[6 ←]
كولويزي: عملية عسكرية بقيادة قوة عسكرية فرنسية بلجيكية مشتركة لتحرير رهائن من قبل ثوار زائيريين لكنها لم تمنع مذبحة 700 إفريقي و170 أوروبياً.

[7 ←]
ليڤينغستون وستانلي Livigstone & Stanley: الأول مبشر مستكشف والثاني صحافي اسكتلندي ذهب للبحث عنه في مجاهل إفريقيا. في العاشر من تشرين الثاني1871 عثر عليه وتخلدت

عبارته: «دكتور ليڤينغستون، أظن...»، وقد تم إخراج فيلم يحكي قصة المستكشفين وهذا ما حاكاه الولدان في الرواية.

[8 ←]
الزيزي: العضو الذكري بلغة الأطفال.

[9 ←]
البُرداء: حمّى المستنقعات الدماغية.

[10 ←]
الروغو: بيوت بوروندي التقليدية المبنية من اللُبن، دائرية الشكل تغطي سقوفها القش.

[11 ←]
البوغروم: حركة شعبية كانت تذبح اليهود.

[12 ←]
تراتيل سمعان: ترنيمة دينية مأخوذة من أنجيل لوقا: اقتباس قول النبي سمعان لدى دخول الولد يسوع إلى الهيكل لأول مرة مع أبويه.

[13 ←]
العاج النباتي: يستخرج من أشجار نخيل تنمو في الغابات الأمازونية حين تقسو ثمارها، ويصنع من عاجها حليّ وقطع فنية صغيرة رائعة.

[14 ←]
رقصة الإبنتو: رقصة المحارب في منطقة راوندا وبوروندي يرتدي فيها الراقصون زيّاً خاصاً وشعوراً مستعارة من القشّ ويتخلّلها الأغاني والأشعار.

[15 ←]
السِّيتار هي آلة موسيقية هندية شبيهة بالعود، يرقى تاريخها إلى القرون الوسطى.

[16 ←]
«بويز تو مين» هي فرقة أمريكية تغني الآر أند بي اشتهرت في غناء الأغاني العاطفية ومن دون

الآلات الموسيقية، هم الأكثر فرقاً تغني الآر أند بي نجاحاً في كل الأوقات، حيث باعت أكثر من 60 مليون ألبوم في جميع أنحاء العالم.

[17 ←]
Kadogos: شباب في أعمار المراهقة جُندوا للحرب في رواندا.

[18 ←]
Jeune Afrique, Le Soir: صحيفتان فرنسيتان.

[19 ←]
Vital´o: نادي بوروندي لكرة القدم تأسس عام 1960 في بوجومبورا العاصمة.

[20 ←]
الماكياڤيلية: مذهب سياسي ينكر كل قانون أخلاقي.

[21 ←]
أبو ظفر (السقساق): طير من طوال الساق يدخل فم التمساح ويأكل ما علق بين أسنانه.

[22 ←]
اللهجة الوالونية: لهجة مقاطعة والونيّ البلجيكية.

[23 ←]
رقصة السوكوس: رقصة فردية على أنغام موسيقى ذات أصل زائيري ولها طابع الرومبا.

[24 ←]
البلي: كرات زجاجية صغيرة يلعب بها الصبيان.

[25 ←]
أبو قرن عملاق (الاسم العلمي: Buceros bicornis) هو نوع من فصيلة أبو قرن.

[26 ←]
الباربادين: ثمرة شبيهة بالجوافة لبّها جيلاتيني أبيض ولذيذ الطعم.

[27 ←]
كيڤو: مقاطعة في شرق جمهورية الكونغو الديمقراطية تجاور رواندا وتنزانيا تضم ثلاث مدن رئيسة أهمها: بوكاڤو.

[28 ←]
توباك شاكور: مغني هيب هوب ولد في هارلم شرقي مدينة نيويورك، ممثل وشاعر. (1971–1996).

[29 ←]
الراستاس: حركة شباب ولدت في جامايكا، يطيلون شعورهم في جدائل يلفونها بقبعات صوفية، يتعاطون الماريجوانا ويستمعون إلى موسيقى الريغي.

[30 ←]
تايم سكوير: ساحة في مدينة نيويورك وأكثرها حيوية في العالم، يشتهر بإعلاناته المضيئة بألوانها الزاهية. تتركز فيه المعالم الثقافية والفنادق.

«كتبتُ هذه الرواية لاستحضار عالم مفقود، ولأقول لحظات بهيجة، حصيفة كفتيات من أسر كريمة، رائحة عشب الليمون التي تفوح في الشوارع، والتنزه الليلي على دروب مزروعة بعرائش البوغانفيليا، والقيلولات عند الظهيرة خلف شِبَاك ممزقة واهية من الناموس، والمحادثات غير المجدية جلوساً على صندوق البيرة، والنمل الأبيض أيام العواصف الرعدية... لقد كتبتُ هذه الرواية لأصرخ للعالم أننا موجودون، في حياتنا البسيطة وحياتنا الروتينية، وضجرنا، وأننا نعمنا بالسعادة ولم نكن نسعى وراء أكثر من البقاء فيها قبل أن يدفع بنا إلى جهات الأرض، ونصبح عصابة من المنفيين واللاجئين، والمهاجرين».

بإحساس نادر مفعم بالرومانسية، يستحضر غابيل فاي عذابات طفل حاصره تاريخ جعله ينمو بشكل أسرع مما كان متوقعاً. يقص علينا المؤلف دراما عرفها جيداً، في روايته الأولى هذه ذات الوقع الاستثنائي، والتي تخللتها ظلال وأضواء، وأحداث مأسوية وفكاهة، وشخصيات تحاول تجاوز المأساة والبقاء على قيد الحياة.

غابيل فاي مغني وملحن موسيقى الراب. متأثر أيضاً بالآداب الكريول وبثقافة الهيب هوب. أصدر ألبومه الأول في ٢٠١٠ مع «مجموعة حليب وبن وسكر» (Milk Coffee & Sugar). وفي العام ٢٠١٣ أصدر أول ألبوم منفرد، «ييلي ييلي على قطعة كرواسان بالزبدة»، تمّ تسجيله بين بوجمبورا وباريس، مطبوعاً بتأثيرات موسيقية متعددة: الراب المشوب بموسيقى السُوْل والجاز، والسمبا والرومبا الكونغولية، والسبين... وطني الصغير هي روايته الأولى؛ خلاسي من أم إفريقية سمراء وأب فرنسي أبيض.

9 786144 328248

مكتبة نوميديا